

مادة : إعجاز القرآن الكريم

د/ عليوان اسعيد

ما بقي من البرنامج

2 - تنبوءات القرآن الكريم

إذا كان ماسبق هو حال نبوءات الأنجيل، فما هو حال نبوءات القرآن الكريم؟ والجواب أنها جميعاً تحققت وبدقة متناهية رغم أن الظروف التي نزلت فيها بعض النبوءات كانت تشير إلى إستحالة تحقيقها، وهاهي بعض نبوءات القرآن الكريم :

- التنبؤ بما يتعلق بمستقبل الإسلام في ذاته أو في كتابه ونبيه :

- التنبؤ ببقاء الإسلام وخلوده : لقد بين القرآن الكريم أن الله كتب البقاء والخلود للإسلام، ومن ذلك قوله تعالى: { كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض } (1). { ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها } (2).

- بيان ضمان حفظ القرآن الكريم وصيانتة : { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } (3).

هذه الآيات كلها مكية ومن سور مكية، ولما كانت المرحلة المكية كلها عرض من قوم محمد عن الإستماع للقرآن الكريم وصد لغيرهم وإضطهاد وتعذيب ومقاطعة وحصار إقتصادي ومؤامرات سرية وعينية على قتل خاتم الأنبياء فهل يمكن لمحمد ﷺ في هذه الظروف القاهرة أن يصدر أحكاماً قاطعة ببقاء الإسلام وخلوده وحفظ القرآن من التحريف هذا البقاء للإسلام والخلود وهذا الحفظ للقرآن من التحريف هو ما نشاهده اليوم بعد 14 قرناً (4). رغم تكرر الدهر لدول الإسلام وتسلط الفجار على معتقيه فأثخنوهم وأكروهوا أمما منهم على الكفر بعد أن حرقوا كتبهم وهدموا مساجدهم، وهو ما فعله أبناء ملّة بورغاد بالجزائر وما عمله هو نفسه من تشويه وتشكيك وطمس ولكن الإسلام مازال هو الإسلام، والقرآن مازال هو هو كما نزل على محمد ﷺ.

إننا لا نملك أي جواب منطقي سوى القول: بأن القرآن الكريم من عند الله.

- بيان حماية النبي (ص) حتى يكمل الرسالة : لقد بين القرآن الكريم أن الله عزوجل يحمي

شخص حبيبه فلا تصل إليه يد بالإغتيال: { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك... والله يعصمك من الناس } (5). وهنا نتساءل: من ذا الذي يستطيع أن يضمن عدم وصول أيدي أعداء محمد الكثيرة إليه للبطش به مهما كانت حراسته شديدة، وقد رأينا كثيراً من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة وهم في مواكبهم في حرس شديد من كل حدب وصوب. بينما كان خاتم الأنبياء يعيش في ثقة وأمان دون حراسة، سوى حراسة الذي أنزل عليه القرآن رغم كثرة المتربصين به في مكة والمدينة من وثنيين

1 - الرعد / 17.

2 - إبراهيم / 24.

3 - الحجر / 9.

4 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دط، دار القلم، الكويت، 1984م، ص 42-43.

5 - المائدة / 67.

عرب ويهود ونصاري بعد ذلك. ولقد بلغ من ثقة رسول الله ﷺ بهذا الوعد الحق كما روى الترمذي والحاكم عن عائشة وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: « كان النبي ﷺ يحرس بالليل، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله » وقد تحققت هذه النبوة فلم تتمكن يد الغدر من الوصول إليه رغم كثرة المحاولات⁽¹⁾، فلم يقبضه الله إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وحتى أنزل عليه قوله تعالى: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً }⁽²⁾ (3). وحتى كمل عليه نزول القرآن كله فكملت بذلك رسالته كلها.

- تقرير التمكين للإسلام والمسلمين وإظهار الإسلام على

جميع الملل والنحل، أو قيام دولة الإسلام⁽⁴⁾: ما أن هاجر المسلمون إلى المدينة فراراً من أذى المشركين وبطشهم حتى هاجمتهم الحروب من كل حدب وصوب فانطلقوا من خوف إلى رعب حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاتاً شديداً، وحتى قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. في هذه الظروف العصيبة ينبئهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك والتمكين للإسلام والأمن والإطمئنان وعدهم القرآن بهذا وعدا لا ليمينهم بل جعل وعده مؤكداً بالتقسم. { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الدين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً }⁽⁵⁾. ولقد تحققت هذه النبوءة بأوسع معانيها كالبرق الخاطف، في عصر الصحابة أنفسهم الذين كانوا لا يبيتون إلا خائفين، فبدلوا من بعد خوفهم أمناً لا خوف فيه واستخلفوا في أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها⁽⁶⁾.

1 - منها ما حدث لسرافقة بن جعشم وفرسه وهو يلحق برسول الله (ص) بغية تسليمه للكفار. وقد اتفق أئمة الحديث على صحة هذه الرواية ونقلها وفي مقدمتهم البخاري ومسلم. وقصة خروجه من بيته أثناء الهجرة والكفار محيطون بداره يترصدون به ليقتلوه فخرج من بين أظهرهم بعد أن ملأ رؤوسهم تراباً سخرية بهم. وعلمه بمؤامرة بني النظير في الغدر به بأن يقوم عمر وبن جحاش النظيري بطرح صخرة على رسول الله (ص) من فوق بيت من بيوت بني النظير. وعلمه بأمر الشاة المسمومة المصلية التي أهدتها له زينب بنت الحارث الخبيرية يوم خيبر بعد فتح المسلمين لها كما بين الشيخان، إلخ. ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الصحيحين وفقه السيرة للبطي ص330،331،338. 261،259. والسيرة النبوية لابن هشام والتفاسير وغيرها.

2 - المائدة / 3.

3 - محمد عبد الله دراز النبا العظيم، ص45،46.

4 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن ترجمة محمد عبد العظيم علي، دط، دار القلم، الكويت، دت، ص178.

5 - النور / 55.

6 - محمد عبد الله دراز، النبا العظيم، ص47،48.

وهاهو قوله تعالى أيضا في سياق حديثه عن اليهود والنصارى وكفرهم ومؤامراتهم وكذا المشركين قبلهم: { يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون } (1). ولقد تحقق كل هذا بحيث لم تمض على هذه البشرية مدة طويلة حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم (2)، ولم يمض عهد الخلفاء الراشدين حتى أزال المسلمون ملك كسرى كله، ووصلوا إلى بلخ والهند وفتحوا الشام والأردن وفلسطين ومصر (3)، وصارت الإمبراطورية الرومية محصورة في عاصمتها ولا سيما بعد فتح المسلمين في العهد الأموي شمال إفريقيا والأندلس ثم أزال العثمانيون الدولة البيزنطية نهائيا وتوغلوا في قلب أوربا ووصلوا إلى فيينا. وما زال الإسلام إلى الآن رغم أنه لم يتعرض أي دين للإضطهاد والتشكيل مثله (4).

وليس بوسعنا تفسير هذه النبوءات إلا أن نسلم بأن صاحب هذه الأخبار بالغيب لم يأت بها من عند نفسه (5).

- **الوعد بفتح مكة وتحقيقه خلال سنتين فقط** : ونصه: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام... لاتخافون...فتحاً قريباً» (6). وكان ذلك يوم الحديبية عندما أصر الكفار على منع المسلمين من دخول مكة وغضب المسلمون من ذلك. وقد تحقق ما وعد به القرآن الكريم حيث فتحت مكة بعد ذلك بسنتين فقط.

وهذا كله ليس في مقدور بشر أن يعلمه مسبقا ويخبر به فكان ذلك دليلا على أنه من عند الله عزوجل (7). فأين هذا مما ذكرناه عن تنبؤات الأناجيل ومنها الذي يعد فيه يسوع بأن الرب سيعطيه كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية. فهاهي نبوءات الأناجيل بالتمكين للمسيح لم تتحقق، ونبوءات القرآن بالتمكين للمسلمين تحققت. ونقول لبورغاد بناء على ما سبق، من هو النبي الذي بدون معجزة؟ هل محمد أم غيره؟!.

1 - التوبة / 33-32.

2 - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص130.

3 - الباقلائي القاضي أبو بكر، إعجاز القرآن (المطبوع بأسفل الإتيقان للبوطي) دط دار المعرفة، بيروت دت ج1، ص58-60.

4 - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع على سبيل المثال إلى محمد الغزالي، كفاح دين ط6، مكتبة رحاب الجزائر 1988 وكذا كتب التاريخ الإسلامي والسير الصراخ الفكري.

5 - وحيد الدين خان، المرجع نفسه، ص130.

6 - الفتح / 27.

7 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص153.

- حديث القرآن الكريم عن مصير أمم بأعيانها :

أخبر القرآن الكريم عن أمم بأعيانها، عن مصائرهما والنتائج التي تنتهي إليها، وكان ماحق بهذه الأمم هو ما أخبر الله عنه، ومن ذلك :

أ - الحرب بين الفرس والروم : كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة قائلين لهم: إن الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس⁽¹⁾. وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم، فنزل قوله تعالى: { ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين⁽²⁾ } الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم⁽³⁾.

لقد كان الإخبار بهذا النصر، وبوقوعه في وقت معين إخباراً بأمرين كليهما لا يمكن توقعه. ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي أنها هزمت في بلادها كما قال تعالى: { في أدنى الأرض } وفقدت مصر والشام والعراق وفلسطين وآسيا الصغرى وتقلصت في عاصمتها⁽⁴⁾، فلم يكن أحد يظن أنها ستقوم لها بعد ذلك قائمة، فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر⁽⁵⁾ وهو وقت قصير جداً، بضع سنين، وهو ما جعل المشركين يكذبونه ويبراهنون⁽⁶⁾ على تكذيبه.

ورغم ما سبق فإن القرآن الكريم لم يكتف بهذين الوعدتين، بل عززهما بثالث وهو: { ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله }، وذلك إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين.

وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الإستبعاد فكيف القول بوقوعهما معاً مقترنين في يوم؟ لذلك أكد الله عز وجل أعظم التأكيد بقوله :

1 - وذلك في الحرب التي وقعت بينهما فهزم الروم شر هزيمة وتقلصت الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها وضرب عليها الحصار الإقتصادي بسد جميع طرقها وأصبح سكان عاصمتها يتوقعون احتلال الفرس لها (وحيد الدين خان، المرجع السابق)
2 - البضع بين 3 و9، والتعبير به هنا في منتهى الدقة. لأن الناس في إصطلاحهم الحسابي لا يتبعون طريقة واحدة، فمنهم من يحسب بالشمس ومنهم من يحسب بالقمر، ومنهم من يكمل الكسور ومنهم من يلغيها، فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع لكل شبهة وأبعد عن كل جدل، ثم إنه ربما يتراخى الأمر بين بشائر النصر ووقائعه الفاصلة، فيقطع إختلاف الحاسبين في تعيين الوقت الذي يضاف إليه النصر والغلبة ولذا حسن التعبير بلفظ في "بضع" دون أن يقال "بعد بضع"، (محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص50).

3 - الروم / 1-5.

4 - وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص132.

5 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص49.

6 - ولقد وردت أحاديث كثيرة حول الحرب بين الفرس والروم وتراهن أبي بكر مع الكفار بعد نزول الآية. رواها الترميذي والنسائي وغيرهما، وقد ورد فيها أن أبا بكر أتفق مع المشركين على زيادة مدة الرهان إلى 9 سنين وزيادة قيمة الرهان بأمر النبي (ص) وذلك قبل تحريم الرهان ؛ وكانت الغلبة لأبي بكر، ومن أراد معرفة هذه الأحاديث فليرجع إلى تفسير ابن كثير م3. ص422، 423.

{ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون } (1).

ولقد صدق الله وعده، فانتصر الروم على الفرس بإجماع المؤرخين في أقل من 9 سنين، وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى كما رواه الترمذي عن أبي سعيد ورواه الطبري عن ابن عباس وغيره وقال به طائفة كبيرة من العلماء كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم (2). وقد أسلم بذلك ناس كثير.

والواقع أننا عندما نتنظر إلى ذلك الوقت حين تتبأ القرآن الكريم بهذه النبوءة نجد أنه لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن الإثنتي عشرة سنة الأولى من حكم هرقل الذي انتصر بعد ذلك على الفرس كانت تتبئ بنهاية الإمبراطورية الرومانية. ولكنه ما لبث جبريل ينزل ببشرى إنتصار الروم على الفرس في بضع سنين حتى أخذ ^{انقلاب} يظهر على واجهة الإمبراطورية الرومانية، فيتحول هذا الإمبراطور الكسول الغارق في الملذات إلى بطل عظيم فيهجر جميع ملذاته بما في ذلك ابنة أخته "مارتينا" التي تزوجها لتتيمه بها رغم تحريمها عليه، ويخوض 06 حروب كاملة يرجع فيها كل ما أخذه الفرس قبلاً بل ويصبح مهددا لعاصمتهم. خاض هذا الإمبراطور آخر حرب ضد الفرس في ديسمبر 627 م فر فيها كسرى من أمامه ثم عاد هذا الإمبراطور إلى عاصمته القسطنطينية في مارس عام 628 م في إحتفال بهيج لينغمس من جديد في لهوه ومجونه (3).

وهكذا صدق ما تتبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم. وفي المدة المقررة "بضع سنين" وتم ذلك في اليوم الذي إنتصر فيه المسلمون على المشركين في بدر « وعد الله لا يخلف له وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (4).

2 - إخبار القرآن الكريم بإستمرار الانقسام والصراع بين النصارى إلى يوم القيامة : كان الناس فيما مضى لا يعلمون أيصدق الدهر ما يخبر به القرآن الكريم أم يكذبه. ولكن ها نحن وقد عشنا في هذا العصر المتأخر من الزمن ننظر إلى الوراء، بأكثر من 14 قرناً فنجد أن ما أخبر به القرآن الكريم صادق (5)، ومن ذلك تقريره أن النصارى سيطلون منقسمين متصارعين متحاربين يأكل بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة. قال تعالى: { ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا ^{حلفاً} حلفاً مما ذكرنا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة } (6). وهكذا حدد القرآن الكريم منذ أكثر من 14 قرناً

1 - الروم / 6.

2 - ابن كثير أبو الفدا إسماعيل تفسير القرآن العظيم، م3، ص426.

3 - وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص135-137.

4 - الروم / 6.

5 - وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص135.

(6) - المائدة / 14

7 - محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة في إعجاز القرآن الكريم. (محاضرة أقيمت بقاعة الموقار وأكملت بمسجد ابن باديس، الجزائر العاصمة يوم الثلاثاء. 22 / 05 / 1984م.

مستقبل النصارى المتمثل في الإنشقاق والخلاف إلى يوم القيامة⁽¹⁾. ويكفي دليلاً على هذا ما أشرنا إليه مما وقع بين النصارى من اختلافات وانشقاقات وشقاقات وحروب. وذلك أثناء حديثنا عن العقيدة النصرانية والإختلافات بين النصارى والنصرانية والسيوف. ونذيل ذلك بمثال واحد على سبيل الإشارة لا الحصر، هو أنه أثناء اقتحام القوات الروسية لمدينة برلين في الحرب العالمية الثانية سنة 1945م قتل في ذلك الإقتحام أكثر من مليون أورثوذكسي روسي ناهيك عما قتل من الألمان البروتستانت⁽²⁾.

3- إخبار القرآن الكريم بحالة اليهود إلى يوم القيامة : بين القرآن الكريم تشتت بني إسرائيل في أقطار الأرض والإضطهاد الذي سيقع عليهم في كل مكان حتى نهاية العالم وحاجتهم الدائمة إلى الحيف⁽³⁾. فما يتعلق بالحيف قوله تعالى: { ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا، الإِخْوِيلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ }⁽⁴⁾.

- يقول عنهم القرآن الكريم: { وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك }⁽⁵⁾.
- ويقول: { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ }⁽⁶⁾. ويقول :
{ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين... ثم رددنا لكم الكرة عليهم... وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة... وإن عدتم عدنا }⁽⁷⁾.

- فقله تعالى مثلاً: { وَإِذْ تُلَذَّنُ بِرَبِّكَ... الْعَذَابِ } التاريخ شاهد على هذا. فأرسل الله في كل عصر من اختارهم من عباده من صالحين وغير صالحين ليسوموا اليهود سوء العذاب. وقوله مثلاً: { وقطعناهم في الأرض أمما }. نجد رغم أنه رغم أنهم استطاعوا أن يتلاعبوا بخيوط السياسة عبر العالم وأن يتلاعبوا بالإقتصاد وبالذهب. وأن يخنقوا خلف كثير من سياسات العالم وقياداته يوجهون ويخططون. يثيرون الفتن ويوقدون نار الحروب، ولكنهم رغم هذا كله نجدهم ممزقين شر ممزق في كل دولة يعيشون في حارات اليهود، وإذا تجمعوا في مكان فإنهم لا يتجمعون إلا ليأخذوا ضربات قاسية يتشتتون خلالها عبر العالم من جديد. وهكذا إلى قيام الساعة. كان الناس فيما مضى لا يعلمون أصدق الدهر ما يخبر به القرآن الكريم أم يكذب، ولكن ها نحن وقد عشنا في هذا العصر المتأخر من الزمن ننظر إلى الوراء بأكثر من 14 قرناً فنجد أن ما أخبر به القرآن الكريم صادق⁽⁸⁾. ضربوا قبل الإسلام، ومما وقع

1 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 178.

2 - روسيا السنوات الضائعة شريط تلفزيوني سبتمبر 1997.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 178.

4 - آل عمران / 112.

5 - الأعراف / 168.

6 - الأعراف / 167.

7 - الإسراء / 4-8.

8 محمد سعيد البوطي، المظاهر الجديدة في إعجاز القرآن الكريم. أيضا محمد سعيد رمضان البوطي، من

روائع القرآن ص 154-155.

لهم ما يسمى السبي البابلي أي جميعهم أصبحوا عبيدا. فعل بهم باختصار⁽¹⁾، ما فعل. وفعل بهم نيرون⁽²⁾ في الدولة الرومانية ما فعل. ومحاكم التفتيش في الأندلس هوهنلر في الحرب العالمية الثانية وهكذا. ونحن نتساءل: من الذي علم محمدا أنه سيظل اليهود هكذا إلى قيام الساعة؟ شيء واحد فقط هو الوحي، هو القرآن الكريم. فالقرآن إذن معجزة ومحمد ﷺ نبي .

- إخبار القرآن الكريم عن مصير أشخاص بأعيانهم : أي ينبئ عن مصيرهم ويكشف حكم الله المبرم في شأنهم، وقد أثنى أولئك الأشخاص إلى ما أخبر الله عنهم، ومنهم :

- الوليد بن المغيرة : حيث حدثنا الله عزوجل عنه في أول المدثر فقال: { نرني ومن خلقت وحيدا... سأرهقه صعودا... سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر }⁽³⁾. إن هذا الإخبار الغيبي «سأرهقه صعودا... سأصليه سقر» ليس مما يتجرأ إنسان عليه، لأنه ليس مطلعا على ما قد يأتي به الغد أو على ما قد يتطور إليه فكر هذا الإنسان. فلا يعرف إذن الاحتمالات المختلفة للزمن ولا الأطوار المفاجئة العجيبة للإنسان⁽⁴⁾. فلنقف إذن هنا، ولنفرض أن الذي يقول ذلك الكلام بشر، فمن ذا الذي يستطيع أن يجزم بأن الوليد بن المغيرة لن يدخل الإسلام، وقد دخله من كان أشرمه. ولو دخل في الإسلام لتحطم ما أورده القرآن في حقه مما يحطم القرآن و يحطم محمدا ﷺ. أي بشر يزعم أنه يقول هذا ولا يسلم الوليد بن المغيرة؟! لا يمكن لأي إنسان أن يجزم بأن فلانا سيموت كافرا ويدخل النار⁽⁵⁾. وكان يمكن أن يعلن إسلامه، ليس حبا في الإسلام، بل ليكذب محمدا عدوه اللدود وليفضحه. ولكنه لم يفعل.

إذن الله هو الذي نزل القرآن على محمد. فالقرآن كلام الله و محمد نبيه ﷺ.

- حديث القرآن عن أبي لهب زوجته :

{ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامراته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد }⁽⁶⁾: تأمل هذه الآيات يجعلنا نعلم أن أحدا من الناس لا يملك أن يطلق هذا الوعيد ويسجله في عنق الزمن وعلى صفحة الدهر، فما الذي يدري هذا الإنسان أن أبا لهب سيثبت على كفره إلى الموت؟ وما هي ضمانات أنه لن يؤمن كما آمن كثير ممن هم أشد منه كفرا وأقسى عنادا؟ بل ما الذي يطمئنه أن أبا لهب لن ينهض به دافع التحدي عندما يسمع هذا الوعيد

1 - هو ملك بابل 605-562، ق م. خرب أورشليم وسبي اليهود سنة 586 ق م (المنجد، ص571).

2 - نيرون Nero (37-68م) هو ابن كلوديوس بالتبني، أصبح إمبراطورا في الفترة 54-68م يقال بأنه كان طاغية اضطهر النصارى واتهم بإحراق روما مات منتحرا. (المنجد، ص583).

3 - المدثر / 12-28.

4 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص156.

5 - محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة، في إعجاز القرآن الكريم.

6 - المسد / 1-5.

المسجل في حقه إلى أن يسلم أمام الملائمحو بذلك أسباب شقاوته، أو ليثبت أن إخبار القرآن عنه ليس دقيقاً ولا صادقاً، أي كان يمكن أن يعلن إسلامه ليحطم إخبار القرآن عنه بأنه لن يؤمن. ولو فعل ذلك لحطم محمداً لأنه يكون قد أثبت كذبه. ولكنه لم يفعل...

« إن بشرا من الناس لن يستوثق من تقلبات الزمن وما قد يطراً من الأحوال والأفكار الجديدة على أبي لهب وأمثاله . وبالتالي فلن يجد من الجرأة ما يستند إليه في إطلاق مثل هذا الخبر الغبي المخبوء في تلافيف المستقبل. ولكنه إخبار الإله العليم الحكيم الذي بيده مفاتيح الغيب، يكشف عن بعض ما أحاط به علمه وقضى به أمره»⁽¹⁾.

II - الإعجاز العلمي في القرآن عكس الكتاب المقدس

لقد وردت آيات كثيرة تعلن في بيانات حاسمة قاطعة عن قوانين كونية لا يمكن أن تتبدل أو تتغير. وتخبّر عن أنها سنظل قوانين نافذة حاكمة على الناس كلهم وعلى الطاقات العلمية كلها مهما تقدمت وتنوعت. من هذه الآيات : قوله تعالى :

{ ومن نعمه نكسه في الخلق أفلا تعقلون }⁽²⁾. { قل ان الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم }⁽³⁾
 { كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون }⁽⁴⁾. { ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا }⁽⁵⁾. { ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا }⁽⁶⁾.
 فقوله: { ومن نعمه نكسه في الخلق } . لنفرض أن القائل بشر وهو طبيب وبحث عن العقاقير التي تخلص الإنسان من الشيب والعجز، ويعجز، هل يستطيع أن يقول بأن الإنسان لا يمكن تخليصه من الشيب؟ لا يستطيع أن يحكم على المستقبل، لأن العلم يتطور دائماً، قد يحكم الإنسان على الماضي. لكن كيف يمكن لإنسان كان يعيش في شبه الجزيرة العربية بلد الجهل فيتحدى التاريخ والمستقبل والتطور العلمي؟ لا يمكن أن يقول الإنسان هذا، وإذن القرآن من عند الله.

- كيف يمكن لإنسان أن يقرر بأن الموت لا يمكن القضاء عليه مستقبلاً، ولا يمكن العثور على علاج له؟ لا يمكن لإنسان أن يقول هذا لأن الغيب محجوب وقد يموت الإنسان بسبب جهله بالأدوية التي قد يكتشفها غيره في المستقبل فيقضي على الموت. إذن الإنسان لا يمكن أن يحكم. ولكن: { أينما تكونوا يدرككم الموت }⁽⁷⁾.

1 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 155-156.

2 - يس / 68.

3 - الجمعة / 8.

4 - الأنبياء / 35.

5 - الإسراء / 85.

6 - المرسلات / 25، 26.

7 - النساء / 78.

- كيف يمكن لإنسان أن يقرر «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» إسدال الستار عن حقيقة الحياة؟. إنه هنا لا يتحدث عن مظاهر الحياة ولكن عن جوهرها وهو الروح. وأنه يحكم بأن الإنسان لا يمكنه أن يعرف حقيقة الروح. وكل الأزمنة التي توالى كانت مصدقة لهذه التحديات القرآنية، إذ رغم التقدم العلمي والطبي لم تعرف حقيقة الروح. وإذن فإن: { ويسألونك عن الروح... قليلا } كلام الله. والآن: أيمن أن يقول هذا الكلام إنسان عاش قديما في شبه الجزيرة العربية؟ الزمان إذن صدق قرار الله عز وجل⁽¹⁾.

وأما قوله: { ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا }⁽²⁾. فإن الكفت بمعنى الجذب، "كفاتا" أي جاذبة إليكم. الرجل العربي الذي عاش في صدر الإسلام قد يعجب من القول بجذب الأشياء إليها، ولعله يفهم أن الإنسان عندما يموت يجعل له باطن الأرض وعاء، فاستطرد القرآن { كفاتا أحياء وأمواتا } أي وكذلك في حالة الحياة، فهي جاذبة للإنسان حياة وموتاً. يونس بن قرة (ت منذ 700 سنة) تحدث عنه العضد الأيجي في كتاب "المواقف" ناقلا عنه بأن الله أورث الأرض طاقة بحيث تجذب الإنسان إليها جذبا رفيعا حتى يعيش فيها ولا ينكفي، وقد قال بأن الله جعل الأرض كروية فجاذبيتها الرفيعة تجعل الإنسان لا يسقط من جانبها، فلو كانت جاذبيتها أقوى لمات الإنسان ولو كانت أقل ما صلحت، وهكذا اكتشف يونس بن قرة جاذبية الأرض وكرويتها من القرآن الكريم منذ 7 قرون⁽³⁾. أي قبل نيوتن بقرون كثيرة. وهنا نتساءل: هل يمكن لمحمد ﷺ أن يعرف هذا؟ إنه لا هو ولا قومه ولا البشرية جمعاء في عصره كانت تعرف هذا. فمن أين أتى به محمد ﷺ؟ والجواب: من عند الله فهو معجزة ومحمد نبي.

وهنا يجب أن نشير قبل مواصلة الحديث في هذا السياق إلى قضية مهمة هي أن القرآن الكريم ليس معجم علوم أو رياضيات أو طب إلخ، وإنما هو كتاب دين ولكنه مما يبذ به التوراة والإنجيل أنه في دعوته للإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة لا بغرض فهمها ودراستها فحسب، وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير. هذه الحقائق التي يقدمها تمتاز باتفاقها التام مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث⁽⁴⁾. بل إن بعضها يعتمد على أحدث ما توصلت إليه وسائل البحث العلمي الحديث كالتصوير بالأشعة وغيره مما يجعل استحالة أن يعرفه أمي أو قومه الأميون أو البشرية جمعاء في عصره وبعد عصره. ولم تتم معرفته علميا إلا بعد اكتشاف وسائل البحث العلمي الحديثة وتطور العلوم تطورها المذهل، وهو برهان على أن القرآن من عند الله. ومن أمثلتها :

1 - من سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة...

2 - المراسلات / 25، 26.

3 - محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة...

4 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 175، 176.

* المنبع الخفي الذي يخرج منه العنصر الجنسي للإنسان { خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب } (1).

- المراحل التي يمر بها الجنين وهو في بطن أمه { فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة } (2). وعدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها { يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث } (3).

- المنشأ المائي لجميع الكائنات الحية { وجعلنا من الماء كل شيء حي } (4). وتكوين المطر { الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله } (5).

هذا ما يبينه القرآن عن تكوين المطر. في حين يذكر الكتاب المقدس -كتاب بورغاد- أنها تنزل من السماء وأن الطوفان عندما حدث انفتحت طاقات السماء (6) ليخرج منها المطر وعندما هلك الجميع انسدت طاقات السماء (7). ولما أهلك الله قوم نوح بالطوفان ندم. فوضع قوسه "قوس قزح" في السحاب ليكون علامة ميثاق بينه وبين الأرض، فيكون متى نشر الله سحابا على الأرض وتظهر القوس في السحاب يتذكر الله ميثاقه الذي بينه وبين البشر والكائنات الحية بعد أن يبصر ذلك القوس، وقد أخبر نوحا بأن قوس قزح هو علامة ذلك الميثاق الذي أقامه الله بينه وبين كل الكائنات الحية (8).

- دائرية السماء والأرض { يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل } (9). وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب { أفلا يرون أنا ناتي الارض ننقصها من اطرافها } (10).

- تعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية { وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم } (11). ووصف حياة النحل بصفة خاصة { وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا } (12)

1 - الطارق / 6، 7.

2 - الحج / 5.

3 - الزمر / 6.

4 - الأنبياء / 30.

5 - الروم / 48.

6 - تكوين، ا ص ح 7 فقرة 11.

7 - تكوين، ا ص ح 8، فقرة 2.

8 - تكوين، ا ص ح 9 فقرات، 11-17.

9 - الزمر / 5.

10 - الأنبياء / 44.

11 - الأنعام / 38.

12 - النحل / 68-69.

ﷺ

- ثنائية النباتات والمخلوقات الأخرى، وهي حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول ﷺ { سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون } (1). والتلقيح بواسطة الرياح { وأرسلنا الرياح لواقح } (2) (3).

- الأغذية وعلم الفلك. وعلم طبقات الأرض (4) إلخ. وسنكتفي بعد هذا الذي ذكرنا بالإشارة إلى الأغذية وذلك لما لها من علاقة بدعوة بورغاد المسلمين إلى أكل لحم الخنزير.

* علم الأغذية: يحرم القرآن الكريم مجموعة من الأغذية { حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير... } (5)، وسنقتصر على الإشارة إلى الدم والميتة ولحم الخنزير.

فما يتعلق بالدم والميتة، فإن التحليلات التي أجريت للدم بينت أن تحريمه مبني على أهمية خاصة لحفظ الصحة. ذلك أن "الدم" يحتوي على كمية كبيرة من حمض البوليك؛ Uric Acid، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاء. وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها الإسلام في ذبح الحيوانات ليخرج الدم من جسم الحيوان وهي قطع الوريد الرئيسي في العنق وحده دون قطع الأوردة الأخرى لكي تستمر علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان وذلك حتى لا يكون سبب الموت هو الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضائه الرئيسية كالدماع أو القلب أو الكبد. وذلك أن الدماء تتجمد في العروق وتسري إلى أجزاء الجسم لومات الحيوان في الحال - على إثر صدمة عنيفة، فيتسمم اللحم كله نتيجة سريان "حمض البوليك" في أنحائه، وهذا ما جعل الإسلام يحرم الدم. كما يحرم الميتة. وقد أصبح اليوم معروفاً أن الدم نفسه إضافة لما سبق يحتوي على كثير من الأمراض الخطيرة منها مرض السيدا.

وأما تحريم لحم الخنزير، فإنه في الماضي لم يكن الإنسان يعرف شيئاً عن أسرار هذا التحريم. ولكن المعروف اليوم أن لحمه يسبب أمراضاً خطيرة، لأنه يحتوي على أكبر كمية من "حمض البوليك" بالنسبة إلى باقي الحيوانات التي تفرز هذه المادة باستمرار عن طريق البول دونه. وجسم الإنسان مثلاً يفرز 90% من هذه المادة بمساعدة الكلوتين. بينما الخنزير لا يفرز من حمض البوليك إلا 02% والكمية المتبقية كلها تصبح جزءاً من لحمه، وهو ما يجعله يشكو من آلام المفاصل كما يشكو منها ومن الروماتيزم والأمراض المماثلة آكلو لحمه (6).

1 - يس / 36.

2 - الحجر / 22.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 176 وهوامشها.

4 - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى موريس بيكاي، القرآن الكريم... وكذا مأسل الإنسان؟ وأيضا وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، الباب السابع ابتداء من ص 123. وأيضا بشير التركي، لله العليم، ط 1، د ت ن، تونس 1979.

5 - المائدة / 3.

6 - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص 151.152.

يضاف إلى ما سبق أنه في أساسه حيوان قذر يأكل النجاسات⁽¹⁾، والديدان، ويفضل العيش في مياه المجاري والقاذورات.

ويلاحظ شئ آخر على الخنزير يتعلق بجانبه الجنسي فهو لا يغاز على أنثاه والغيرة كما هو ملاحظ فطرة في الإنسان والحيوان. وهو ما يلاحظ من تصارع ذكور الحيوانات على إناثها وتكون الأنثى في النهاية من نصيب الأقوى. أما ذكور الخنازير فلا تتصارع على إناثها لأنها لا توجد عندها هذه الغيرة. واكل لحم الخنزير قد تتأثر طباعه بهذا وهو ما يلاحظ عند الغربيين آكلي الخنازير فإن الديوثة عندهم صارت طبيعة وطبعاً. ومع كل هذه الموبقات في أكله فإن بورغاد يدعو المسلمين إلى أكله لا لسبب سوى أن سيده بطرس أباحه بعد أن كان محرماً بنص التوراة. ولا زال اليهود إلى الآن يحرّمونه، وهو يعلم أن الرومان لأمر سياسي حاولوا إباحتها وإجبار اليهود على أكله - لأنه كان من مأكولاتهم - قبل ميلاد المسيح. وذلك عندما أمر الملك "أنطيوخس" أن يضحي في مذبح الهيكل بأورشليم بالخنزير سنة 168 ق م. فقامت طائفة الفريسيين قيامة رجل واحد، وعرضوا أنفسهم للموت بالآلاف كراهة لهذه البدعة النجسة⁽²⁾ وها هو نص التحريم من العهد القديم: «والخنزير لأنه يشق الظلف لكنه لا يجتر فهو نجس لكم، فمن لحمها لا تأكلوا وجثثها لا تلمسوا»⁽³⁾.

ولما بعث المسيح عليه السلام لم يبلغ هذا الحكم، ولكن الخنازير كانت من الحيوانات التي يرببها الرومان واليونان ويأكلون لحومها فأباحها لهم بطرس هي وكافة الهوام والحشرات من أجل استمالتهم إلى النصرانية، وذلك على إثر رؤية منامية حسب زعمهم تفيد تحليل لحم الخنزير وكافة دواب الأرض والحشرات والزواحف والطيور والوحوش. وهاهو النص المزعوم «... صعد بطرس على السطح ليصلي... فجاج كثيراً واشتهى أن يأكل. وبينما هم يهيوون له وقعت عليه غيبته، فرأى السماء مفتوحة وإناء نازلاً عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومُدلاة على الأرض، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء، وصار إليه صوت قم يا بطرس اذبح وكل، فقال بطرس كلا يارب لأنني لم أكل قط شيئاً دنساً أو نجساً، ثم أكل قط شيئاً دنساً ثم ارتفع إناء، فصار إليه أيضاً صوت ثانية ما طهره الله لاتدنسه أنت، وكان هذا على ثلاث مرات ثم ارتفع الإناء أيضاً إلى السماء»⁽⁴⁾ (5).

والنتيجة أن بطرس أباحه لأن الرومان الوثنيين كانوا يأكلونه لا بسبب هذه الرؤيا المزعومة التي لا يصدقها العقل.

1 - المرجع نفسه، المراجع، هامش 152.

2 - عباس محمود العقاد. حياة المسيح. ص 244.

3 - تثنية، ا ص ح 14. فقرة 8.

4 - أعمال الرسل. ا ص ح 10، فقرات 9-16.

5 - ومن أراد التوسع فليرجع إلى محمد أبي زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 135، أيضاً محمد رجب شتيوي، المجامع، ص 104، 105.

والنتائج المستخلصة من كل ما سبق هي :

الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها سواء مما ذكرناه في التنبؤات أو مما ذكرناه في الإعجاز العلمي، وهي دليل قطعي على أن القرآن الكريم من عند الله. والقرآن ذاته يبين هذه الحقيقة «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»⁽¹⁾. ذلك أن القرآن الكريم نزل في عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة إلا قليلا. فقد كانت معلومات عصر محمد ولا سيما معلومات الكتاب المقدس تعتبر المطر ينزل من السماء وأن الأرض مستوية والنجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء أو قناديل معلقة في الفضاء وأن الأرض ساكنة والشمس تدور حولها، ثم أخذ العلم يتطور فغير معلوماتنا عن كل أجزاء الجسم وشعب العلم المختلفة ^{مما} يدل على أنه لا وجود لكلام إنساني تدوم صحته كليا، لتأثر المتكلم بما هو معروف في عصره من معتقدات وعلوم فيقوم بسرده وهو ما جعلنا لا نجد كتابا مضى عليه زمن خال من الأخطاء نظرا إلى الكشف الجديدة في كل الميادين.

«ولكن القرآن الكريم يختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية فهو حق وصادق في كل ما قال. كما كان في القرون الغابرة. ولم يطرأ على مقاله أي تغيير رغم مضي قرون وعصور طويلة. وهذا في نفسه دليل على أن منبعه يحيط بالأزل وبالأبد علما، وهو يعلم سائر الحقائق في صورتها النهائية والحقيقية. ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال، ولو كان القرآن الكريم من عند محمد أو أي عبقرى لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة كما يحدث لكل كلام إنساني في مستقبله»⁽²⁾.

ونختم حديثنا هنا بما ختم به موريس بيكاي «إن القرآن... يظهر أيضا - لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم - طابعه الخاص، وهو التوافق مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك... يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنسانا في عصر محمد ^{صلى الله عليه وسلم} قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن. إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميا، وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماما مع المعطيات الحديثة... ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيرا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد ^{صلى الله عليه وسلم} لذا فمن الواجب أن ينظر إلى القرآن على أنه وحي من الله وأن تعطى له مكانة خاصة جدا، حيث إن صحته

1 - فصلت / 53.

2 - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص 140.

أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا كأنها تتحدى أي تفسير وضعي...»⁽¹⁾.

وهذا فإن القرآن من عند الله ومحمد نبي. وما سبق إضافة لهذه النتيجة المبطلّة لهجوم بورغاد على القرآن وصاحبه فإنه يبين لنا تنوع مناحي إعجاز القرآن الكريم وظهور مناحي إعجازه جديدة فيه باستمرار أي بطريقة طردية مع تقدم العقل الإنساني وتقدم العلوم. وكل جانب من إعجازه يكفي دليلاً على أنه من عند الله وبذلك تظهر نبوة محمد ورسالته بجلاء وهذا عكس الكتاب المقدس الذي كلما تقدم العقل وتقدمت العلوم زادت أخطاؤه وخطايا أصحابه.

III - الإعجاز القصصي (إخبار القرآن الكريم عن الماضي السحيق)

أو

تفنيد الزعم بأن محمداً (ص) أخذ القرآن عن الكتاب المقدس

يعد قصص القرآن أحد أهم موضوعاته، ولقد ورد ما يشبه هذا القصص في ما يسمى الكتاب المقدس. والتساؤل المطروح هو: مامصدر هذا القصص القرآني؟ رجال الإستشراق و الإكليروس يتهمون الرسول ﷺ بأنه أخذ كما أخذ غيره من الكتابا المقدس، ومنهم بورغاد الذي اتهم خاتم الأنبياء بأنه أخذ كل شئ من اليهود والنصارى بما في ذلك الوجدانية التي علمها للقبائل العربية ولكنه علمها للعرب مخلوطة بالشرك عكس العقيدة النصرانية الموحدة! . وقد تعلم كل هذا أثناء سفره للمتجر⁽²⁾ إلخ.

والواقع أن قصص القرآن يعد أحد جوانب إعجازه ذلك أن ما اشتمل عليه من قصص صادقة لم يعرفها محمد ﷺ إلا عن طريق الوحي لأنه لم يجلس إلى معلم ليتعلم منه ولم يغادر بطحاء مكة إلا مرتين إحداهما في الثانية عشرة. والأخرى في نحو الخامسة والعشرين، فصدقها مع هذه الأمية دليل على أنها من عند الله⁽³⁾. هذا ما نؤمن به نحن المسلمين ونتعبره بديهياً ولنبدأ مناقشة هذه القضية من قصة بحيرا الراهب.

* قصة بحيرا الراهب : تذكر هذه القصة أن محمداً ﷺ قابله وهو في الثانية عشرة من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب في سفره إلى سوريا. فيزعم رجال الإكليروس والاستشراق أنه لقنه القرآن خلال هذه المقابلة. والصواب يمنعنا من الأخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدراً لتعليم محمد ﷺ

1 - موريس بيكاي، القرآن الكريم و... ص 285، 286.

2 - فرانسوا بورغاد. مسامرة قرطاجية، ج 2، ص 43، 44.

3 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 9.

لأنها. إما أنها لم تحدث أصلا وهو ما ذهب إليه كثير من المفكرين، أو يجب علينا أن نأخذ كل الوقائع التي تذكرها في الاعتبار، وسنجد أن القصة تذكر أن المقابلة تمت في حضور جميع أفراد القافلة وأن الرسول ﷺ كان مسؤولا لا مستمعا أي أن بحيرا كان يسأل والنبي ﷺ يجيب وبحيرى يسمع وليس العكس، والذي يأخذ هو المستمع لا المجيب. وتذكر القصة أنه بانتهاء الاستجواب تيقن الراهب من أن محمدا هذا هو الرسول الخاتم وبهذا فإن الفكرة تفند نفسها⁽¹⁾. إذ مما ورد فيها أيضا أن بحيرا لم يكن يصنع لهم طعاما، وقد صنعه خصيصا لما رأى علامات النبوة في خاتم الأنبياء، منها السحابة التي تظله والشجرة التي جلس تحتها فارتخت أغصانها^{لتنظله}، ولما تخلف رسول الله ﷺ عن الذهاب إلى طعام بحيرا. أصر بحيرا على إحضاره، ولما حضر اختبره عن اللات والعزى فتأكد من أنه النبي، فأخذ يسأله عما يعرف من أوصافه من خلال الكتاب المقدس، وختم ذلك الاختبار برؤيته لخاتم النبوة بين كتفيه ﷺ ثم وجه أسئلته لعم النبي ﷺ وختمها بأن طلب منه الرجوع بابن أخيه ﷺ خوفا من قتل اليهود له الخ القصة⁽²⁾. يضاف إلى هذا دليل آخر له أهميته القصوى هو سن النبي ﷺ الذي كان بين 9 و 12 سنة⁽³⁾. وهذه السن لا تسمح لمحمد ﷺ بتلقي القرآن الكريم من بحيرا الذي لو كان عنده القرآن لنسبه لنفسه وما أعطاه لمحمد ﷺ. ذلك أننا عندما نتنظر إلى القرآن، لو فرضنا جزافا أنه ليس من عند الله فإننا مقتنعون -حتى أعداء محمد ﷺ أيضا- بأن الذي أنتجه عبقرى، والذي ينتج القرآن ولا ينسبه لنفسه ويعطيه لغيره يكون عمله هذا في منتهى حماقة والغباء -وهو ما يتناقض مع أصل الإفتراض- إذ ينسبه لنفسه ليرفعها به، والذي نجده عند العظماء والمفكرين أن كثيرين منهم يسطون على إنتاج غيرهم ليرفعوا به أنفسهم لا أن يفرطوا فيما تفتقت به عبقرتهم ويعطونه للآخرين ليرفعوا به شأنهم ويدخلون به التاريخ من بابه الواسع، وهكذا :

القرآن دليل عبقرية من أتى به

والعبقرى لا ينسب عبقريته لغيره ويبقى مغمورا مظمورا.

إذن يستحيل أن يكون بشر علم محمدا ﷺ القرآن الكريم.

وهل يمكن تعلم القرآن الكريم أو تعلم كل ما ورد في الكتاب المقدس من بحيرا خلال تلك

الجلسة القصيرة التي لم تزد على الوقت المخصص لتناول الطعام الذي أعده لهم بحيرا؟

1 - وهو ما اعترف به هوارت الذي كتب مقالا "بالجريدة الآسيوية" عدد يوليو أغسطس 1904 بعنوان "مصدر جديد للقرآن" حيث ورد بالخاتمة ما يأتي: «لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور المستند إلى هذا الراهب السوري إلا مجرد قصة من نسج الخيال» (محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، هامش ص134).

2 - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى سيرة ابن هشام، ج 1، ص 180، 183. وكذلك ابن القيم الجوزي، زاد المعاد في هدى خير العباد، ج 1، ص 17.

3 - محمد عبد الله دراز النبأ العظيم، ص 57.

* ورقة بن نوفل⁽¹⁾ : وما يقال عن بحيرا الراهب يقال كذلك عن ورقة بن نوفل: ذلك أن الرواية التاريخية التي تبين اتصال محمد ﷺ به إنما تذكر أنه بعد نزول الوحي عليه⁽²⁾. وذلك بعد أن أخبرته أمنا خديجة بما ذكر لها غلامها مسيرة أنه أثناء رحلتها إلى الشام للإتجار بمالها كان إذا حلت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلان الرسول ﷺ من حر الشمس وهو يسير على بعيره وأيضا ما قاله الراهب الذي نزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبا من صومعته بعد أن استفسر من مسيرة عنه فقال ذلك الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، فلما أخبرت خديجة ورقة بكل ذلك قال لها ورقة : « لئن كان هذا حقا ياخديجة إن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه »⁽³⁾. بل يخبرنا التاريخ أن ورقة كان يستبطن الأمر ويقول: حتى متى؟ ولما بدأ نزول الوحي على رسول الله ﷺ انطلقت خديجة إلى ورقة وأخبرته بما حدث، فقال لها: قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده... لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له: فليثبت، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك، فلما تلاقيا أثناء الطواف بالكعبة قال ورقة لمحمد ﷺ: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرت الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوحة⁽⁴⁾ (وسط رأسه) إلخ. ويذكر التاريخ أن ورقة هذا آمن بمحمد ﷺ قبل بعثته⁽⁵⁾. ونقول عن ورقة ما قلناه عن بحيرا، وهو: لو كان عنده القرآن لنسبه لنفسه.

ومهما يكن من أمر. فإن مقابلة رسول الله ﷺ لكل من بحيرا وورقة لم تكن سرا، بل كان في كل منهما شهود، ولنسألهم، فإنهم يجيبون بها يثبت نبوة محمد ﷺ لا بما يوهم الأخذ منهما⁽⁶⁾.

1 - هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها. كان منتصرا، أمه هي هند بنت أبي كبير بن عبد بن قصي، ولا عقب لورقة. وهو أحد من آمن بالنبي (ص) قبل البعثة وبعد الرسالة (ابن هشام، السيرة النبوية، م1، ص238، 191، وهاشم رقم 2، 191)

2 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص57.

3 / 4 - ابن هشام، السيرة النبوية، م1. ص188، 191، 238.

5 - المصدر نفسه، هاشم رقم 1، ص191.

6 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص57.

- وجود بعض الزوج الأحباش وبعض الرومانيين في ضواحي مكة يعملون في الحانات :

هناك احتمال آخر يورده رجال الإستشراق والإكليروس، هو أنه كان يوجد في ضواحي مكة بعض أفراد من المغامرين الرومان أو الزوج الأحباش "بائعون للنبيذ" أي يعملون في الحانات أو "كادحون" يسكنون الأحياء المتردية، ويقال أيضا: «إن الإنجيل درس في الحانات لعقليات خام»⁽¹⁾. فهل تأثر محمد بالكتاب المقدس في هذه الأماكن؟ إنهم لم يقدموا وثيقة واحدة عن علاقات فعلية لمحمد ﷺ من هذا النوع. والواقع أن هناك أدلة كثيرة تثبت استحالة مثل هذه العلاقات وحدوثها، وتبين تهافت الدعوى، منها:

1 - شواغل الرسول ﷺ قبل بعثته كانت معروفة ومحددة، إذ يؤكد لنا التاريخ الثابت المؤكد أن حركته ﷺ كانت على التوالي في أماكن ثلاثة، إما في الخلاء لرعي الغنم، وإما في التجارة مسافرا مع القوافل⁽²⁾. وهذا لم يحدث إلا مرة واحدة عندما ذهب بمال خديجة إلى الشام في سن 25. فوصل إلى بصرى من أرض الشام⁽³⁾، وهذه الرحلة كانت للتجارة، ويستحيل أن تكون كافية لأن يتعلم فيها محمد ﷺ من أهل الكتاب كل أو بعض ما ورد في الكتاب المقدس لقصرها، ولأسباب أخرى سنذكرها.

أما مجال تحركه الثابت فهو المجتمع العام مع رؤساء القبائل. وهكذا فلا خلق محمد ولا مولده ولا مشاغله تجعلنا نتصور تردده على تلك البيئة الهابطة.

2 - لا فائدة لمحمد ﷺ من العلاقات مع أولئك بائعي النبيذ ويستحيل تعلمه منهم. ذلك أن هؤلاء المظموين - أهل الكتاب النصارى - لم يكونوا يجهلون دينهم فحسب ولكن بصفة خاصة - وهنا تتركز حجة القرآن الكريم - كانت لغتهم الأجنبية حاجزا طبيعيا أمام النبي⁽⁴⁾ ﷺ «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين»⁽⁵⁾.

3 - يضاف إلى ما سبق، تقديس أهل مكة وغيرهم من العرب للكعبة وحفظهم لأنسابهم واعتبار أنفسهم - وهم كذلك بالفعل - من نسل إبراهيم وإسماعيل. ونحن لا نعرف شعبا آخر له مثل ما للعرب من شغف بعلم الأنساب حيث يحرصون على الإحتفاظ في ذاكرتهم بسلسلة أجدادهم حتى وصلوا إلى الجيل العشرين، وظل وجود الكعبة المشرفة وبعض الأماكن المعروفة التي تحمل اسم إبراهيم

1 - انظر مقال هوارت السابق، ص 131/ عن محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 134.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 134.

3 - ابن القيم الجوزي، المرجع السابق، ص 17.

4 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 134، 135.

5 - النحل / 103.

وإسماعيل يعرفهم ويذكرهم بعلاقاتهم بهذه الأسماء المجيدة⁽¹⁾. وهكذا كان العرب -كما ذكرنا- نسابة إلى حد أن الإنسان كان يعرف 20 جدا من أجداده، أي يعرف من أجداده ما يغطي حوالي 10 قرون، ولقد بلغ من تقدير أهل مكة للكعبة أن قرروا « أن لا يدخل مكة كتابي إلا أن يكون أجيرا لا يتحدث بشيء من أمر دينه ومن أمر كتابه، ولذلك لم تكن بمكة جاليات من اليهود - كما كانت بيثرب، ولا من النصارى كما كانت بنجران⁽²⁾ ».

4 - وكذلك كانت مكة مستقلة سياسيا، ولم تخضع قط لفرس أو روم⁽³⁾، أو أي قبيلة أخرى من القبائل العربية⁽⁴⁾.

5 - وقد زاد من كراهية أهل مكة خاصة والعرب عامة للنصرانية أولا واليهودية ثانيا ونفورهم من هاتين الديانتين ما فعله أبرهة الأشرم النصراني من إقدام على هدم الكعبة المشرفة خدمة للنصرانية وتحويل حج العرب إلى كنيسة "القليص"، بدلا عنها. وعندما نعلم أن عام الفيل هو العام الذي ولد فيه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، وأن جده كان زعيما لقريش المواجهة لأبرهة ندرك جيدا أن محمدا ﷺ كان يعرف حادثة الفيل جيدا، وكان كثير من أقاربه خاصة والقريشيين عامة الذين عاشوا الحدث وهم يرون الطير الأبابيل ترمي نصارى أبرهة الأشرم المعتدين بحجارة من سجل فتجعلهم كعصف مأكول، ظلوا أحياء إلى ما بعد البعثة. وعندما نعلم دور جد محمد ﷺ في مقابلة أبرهة ومادار بينهما من حوار، وندرك ما انطبع في أذهان قريش المعظمين للبيت وهي ترى رأي العين الطير الأبابيل ترمي جيش أبرهة بحجارة من سجل فتجعله كعصف مأكول من عقيدة حول عظمة الكعبة واحتقار وكراهية العاملين على تدميرها، ندرك جيدا استحالة أن يكون محمد ﷺ قد أخذ عن أهل الكتاب.

6 - وأخيرا إذا كان هذا المصدر -الحوالات النصرانية في مكة- صالحا بالفعل للأخذ عنه ألم يكن طبيعيا وفي متناول أعدائه كأبي جهل وغيره أن يلجأوا إليه ويحطموا به نبوة محمد ﷺ

1 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 157.

2 - محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص 103، 104.

3 - وهذا رغم حرص هرقل على إخضاع مكة له سياسيا ودينيا، ويتمثل ذلك في حادثة الفيل التي فشلت كما سنشير وكذلك المحاولة الثانية التي قام بها القيصر على هذا الإخضاع ولكنها هذه المرة كانت بطريقة سليمة لأنه اقتنع بفشل الحسم العسكري بعد حادثة الفيل وذلك بواسطة عثمان بن الحويرث الذي قدم على قيصر الروم وتصدر عنده فعظمت منزلته عنده فتوجه أميرا على مكة، فلما جاء المكيين بذلك أنفوا من أن يدينوا لملك، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى صحبته المشهورة: ألا إن مكة حي لقاح لا تدين لملك. فلم يتحقق مراد القيصر، وكان يقال لعثمان هذا: البطريق، ولا عقبه له، ومات بالشام مسموما، سمه عمر وبن حفنة الغساني الملك. راجع الروض الأنف. عن ابن هشام، السيرة النبوية، م 1، ص 224، هامش رقم 2، ص 224.

4 - محمد حسين هيكل، المرجع السابق، ص 237.

ويفضحونه بدلا من أن يكفوا أنفسهم عناء السفر إلى يثرب بحثا عن أسلحة علمية يوجهونها ضده⁽¹⁾، من طرف اليهود.

* محمد (ص) وبيئة أهل الكتاب الأوسع : بعد تقييدنا للتهم السابقة ننقل إلى الحديث عن بيئة أوسع دائرة، وثقافة أغنى يمكن أن تكون أفكارها الدينية وطقوسها قد ساهمت في تكوين الإسلام. وتقوم التهمة على أن محمدا ﷺ سافر في شبابه بين الفينة⁽²⁾. والأخرى إلى سوريا وربما إلى اليمن للتجارة، وعندما نعلم أن الغساسنة بسوريا وبني الحارث بنجران في اليمن كانوا قد تنصروا، فضلا عن وجود القبائل اليهودية بالمدينة وخيبر التي لم يتصل بها محمد ﷺ إلا بعد الهجرة فلماذا لا يكون محمد بما عرف عنه من دقة الملاحظة والاهتمام الفطري بالمسائل الأخلاقية قد تأثر بأفكار وأخلاق هذه المجتمعات التي تذبذبت سموا ورقة أخلاق قومه الخشنة التي كانت تثير حنقه؟ هذا هو رأي غولد سيهر⁽³⁾. الذي زعم أن مقارنة محمد ﷺ لحياة قومه وتقاليدهم بانطباعاته الحية التي اكتسبها من رحلاته العديدة قد أوجدت عنده الدفعة الأولى لنظامه الإصلاح⁽⁴⁾.

وزاد بوغارد على هذا بأن الوحدانية التي علمها محمد ﷺ للقبائل العربية تعلمها من اليهود والنصارى في سفره للمتجر، ولكنه تعلم النصرانية المخلوطة بالشرك، بسبب بعد الذين علموه إياها عن مجلس روما، أي أن النصارى الذين تعلم منهم محمد ﷺ كانت نصرانيتهم مخلوطة بالشرك بسبب بعدهم عن الفاتيكان فتعلم منهم محمد أيضا ذلك الشرك.

والواقع أن بوغارد ذاته متأكد من تهافت هذه التهمة، ذلك أنه تبين لنا خلال تحليلنا للعقيدة النصرانية أنها عقيدة وثنية محضة قوامها الشرك. والعقيدة الإسلامية تقوم على التوحيد المطلق والتنزيه الصرف، تتناقض تناقضا كلياً مع عقيدة بوغارد. حددت بدقة لا إختلاف في أصولها بين جميع الفرق الإسلامية، حددتها سورة الإخلاص بدقة لا مثيل لها { قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد }⁽⁵⁾.

بل إن ما عاب عليه القرآن الكريم النصارى هو شركهم ونسبتهم الولد لله عز وجل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وبينهم كفار بذلك { لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم }⁽⁶⁾.

1 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 135.

2 - لقد اثبتنا قبلاً أنه (ص) لم يغادر بطحاء مكة إلا مرتين وللتشام فقط، إحداهما في سن 9 و الأخيرة في سن 25.

3 - غولد سيهر (Gold Ziher) إينياس (1850-1921م) مستشرق يهودي-مجرى: زار بعض الأقطار العربية اهتم بدراسة الفرق الإسلامية والإسلام والفقهاء والأدب العربي له تصانيف بالألمانية والإنجليزية والفرنسية في الإسلام والفقهاء والأدب العربي، منها "العقيدة والشريعة في الإسلام" (المنجد، ص 397).

- GOLD ZIHER . le dogme et la loi de l'Islam. page 4

- 4

عن محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 136.

5 - الإخلاص / 1-4.

6 - المائدة / 17.

بل وبين أيضا كفر بوغارد وأصحاب ملته المتأثرين نصا { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد } (1). وهذا دليل قاطع على عدم تأثر محمد ﷺ بالنصرانية إذ لو تأثر بها لأخذ عقيدتها، لأن العقيدة هي أساس الدين. هذا وإن المرء ليستغرب اتهام العقيدة الإسلامية بالشرك اللهم إلا إذا كان الذي لا يؤله بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويقضي حاجته البشرية يعد مشركا، كما نلاحظ شيئين آخرين على تهمة بورغاد هما :

- لماذا لم يخبرنا بوغارد بالسر الذي جعل محمدا يتعلم النصرانية ولا يتعلم اليهودية؟! -
- اعتبار بورغاد للمذاهب النصرانية الشرقية كلها منحرفة لبعدها عن مجلس روما. وأصحاب هذه المذاهب يعتبرون مجلس روما منحرفا، وتتساءل نحن: عند من توجد النصرانية النمرانية؟!.

بعد هذا نتساءل: هل دخل محمد ﷺ في الأراضي النصرانية الحقيقية؟ والجواب أنه لم يدخل، وذلك لعدم إشارة القرآن الكريم إطلاقا للمظاهر الخارجية للنصرانية بينما تكلم بتوسع عن أعماق روح النصرانية مما يتناقض تماما مع مسلك الشعراء العرب المعاصرين للرسول ﷺ الذين زاروا تلك البلاد (2)، كما يتناقض مع الاعتقاد بأن هذا المتكلم عن النصرانية إنما تكلم عليها بعد رؤيته لرجالها واختلاطه بهم.

لأن الواصف مهما كان مبالغا في التجريد فلا يمكنه التخلص التام من الوصف الخارجي لأنه من خلاله يمكن أن ينفذ إلى الأعماق. بينما نجد القرآن الكريم قد تكلم بتوسع عن أعماق روح النصرانية وجوهرها دون أن يشير أية إشارة إلى وصف مظاهرها الخارجية، وهذا دليل على أن مصدر معرفة محمد لذلك إنما هو الوحي.

ويزيد موقفنا هذا تأكيدا ما يؤكدته كثير من الكتاب من أن رحلات القوافل التجارية التي صاحبها الرسول ﷺ لم تقده إلى أبعد من سوق "حباشا" بتهامة وعرش باليمن (3)، ولنفرض أنه اتصل بالفعل بالنصرانية آنذاك، فهل كان سيجد فيها ما يسره؟ أو ما يأخذه منها؟! لقد تبين لنا أثناء حديثنا عن العقيدة النصرانية والأنجيل أن تلك المرحلة كان الصراع فيها بين الطوائف النصرانية على أشده، وكانت جدالاتهم لا تنتهي، ومجامعهم المقدسة تعقد الواحد تلو الآخر، كل مجمع يعلن الذي سبقه ويحكم على حاضريه باللعن والحرمان وعلى كتبهم بالحرق، وكل طائفة تلعن الأخرى. وتبين لنا كيف ظهرت بين رجال الإكليروس الأمراض التي لا علاج لها من سيمونية وأكل أموال الناس بالباطل وسفك الدماء والشذوذ الجنسي و"المساكنة الروحية" وما إلى ذلك، وأنه منذ مجمع نيقية الأول بل وقبله

1 - المائدة / 73.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 135، 136.

3 - ومن هؤلاء سبرنجر (Sprenger) ذكره هوارت في المقال السابق، ص 128.

-Sprenger, cité par Huart, une Nouvelle source de Koran p. 128.

عن محمد عبد الله دراز، مدخل، هامش ص 136.

والعالم النصراني يزداد تمزقا، وكل يوم يظهر مذهب ديني جديد ضد المذاهب السابقة واللاحقة، كل قادر على الآخر يضطهده ويدمره. كل الأمر على حاله إلى أن جاء الإسلام فأصبحت المذاهب النصرانية تحتفي به من المذاهب النصرانية المضطهدة لها، وقد نتج عن ذلك فساد رجال الدين النصراني وساساتهم وعامتهم وخاصتهم. ولقد صدق تاييلور عندما قال: « إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه... لم يكن إلا خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة وطقوسا دينية ضحلة وصبيانىة، بحيث شعر العرب ذو العقول النيرة بأنهم من قبل الله مكفلين بإصلاح ما ألم بالعالم من فساد... »⁽¹⁾. وتوصل تاييلور إلى أن النصرانية الحقيقية في القرن 7 م كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة، حتى أنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها⁽²⁾. ولقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة التي اعترف بها تاييلور وجميع مؤرخي النصرانية في قوله تعالى: { ومن الذين قالوا إنا نصراني أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون }⁽³⁾. ذلك أن هذه الآية تبين الانفصال واللاتجانس الذي كان بين النصرانية والنصارى في عهد محمد ﷺ وتعلن أن الصراع بين النصارى الناتج عن انفصالهم عن النصرانية سيمتد إلى يوم القيامة⁽⁴⁾.

وهنا نسجل اعجازا آخر في القرآن الكريم، ذلك أننا الآن بعد نزول هذه الآية بأربعة عشر قرنا ونرى العداوة والبغضاء بين النصارى واستمرار الصراع والإقتتال بينهم وبعدهم جميعا عن النصرانية الحققة. وهل يوجد في النصرانية ما يأخده منها محمد ﷺ؟!

ومع هذا نواصل النقضي فنتساءل: هل يمكن أن يكون محمد ﷺ قد تأثر بالعرب المنتصرين؟ ولكننا نجد :

* حالة العرب المنتصرين أسوأ من النصارى السابقين : فنصيغ القضية كما يأتي :

إذا كان ما سبق حال النصرانية والنصارى، فهل كان سلوك العرب المنتصرين أحسن حالا من النصارى الأصليين السابق ذكرهم؟ والجواب، لا. ذلك أنه رغم تنصر بعض القبائل العرب في الجاهلية بسوريا (الغساسنة) إلا أنهم ظلوا ملازمين لعاداتهم وتقاليدهم الوثنية القديمة إلى حد أن التغالبة

1 - تاييلور، المسيحية القديمة م 1، ص 266. عن محمد عبد الله دراز، مدخل 137.

2 - اسحاق تاييلور، ذكره د/سنكلير تسدال في مصادر القرآن بالإنجليزية، ص 136، 137.

- Taylor, cité par Dr Sinclair Tisdall sources of the Koran.

عن محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 138

3 - المائدة / 14.

4 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 137، 139.

لم يأخذوا من النصرانية سوى شرب الخمر. ولقد أقر بهذا الأب لامانس⁽¹⁾، -الذي عزي- انعدام تأثر النصرانية إلى "بعد معتقيها العرب عن الرعاية المناسبة للكنيسة"⁽²⁾. ولقد اعترف هوارت⁽³⁾، "Huart" في النهاية بأنه « مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير...محمد قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسوريا فإنه يتحتم استبعادها، نظرا لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة »⁽⁴⁾.

ولقد علق دراز على ما سبق بقوله: « هذا إذن هو المشهد الحي الذي يمتد أمام نظر المشاهد، فحيثما اتجه وجد ضللا يحتاج إلى هداية، وانحرافا يتطلب التقييم، ولن يجد أبدا نموذجا أخلاقيا وأدبيا يصلح لأن ينقله محمد أو يبني عليه نظامه الإصلاحية، فلا شك أن المواد التي صادفها حتى الآن قد تجمعت في بناء يصلح للهدم، ولم يكن فيها ما يصلح ليقيم عليه بناءه الجديد »⁽⁵⁾.
فهل يمكن أن يكون قد أخذ مباشرة من الكتاب المقدس؟

* محمد والإطلاع المباشر للكتاب المقدس : بعد تفنيد كل المزاعم السابقة، بقي احتمال آخر هو: ألا يمكن أن يكون محمد ﷺ قد استنبط الإسلام من خلال مطالعته المباشرة للكتب المقدسة القديمة يهودية أو نصرانية أو غيرهما؟ ولكي يتوقع هذا الإحتمال فإنه يتطلب أن يكون محمد يعرف القراءة والكتابة، ولكن القرآن الكريم أجاب بأميته بل برهن بأميته على ربانية تعليمه. إنه لا يقرر فحسب أنه أمة من شعبي أمة « الذين يتبعون الرسول النبيء الأمي... »⁽⁶⁾. « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم »⁽⁷⁾. بل يؤكد أنه لم يسبق له أن قرأ كتابا قبل القرآن الكريم أو كتب بيده « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبتطلون »⁽⁸⁾ (9).

ولقد كان معارضوه ﷺ يعرفون فيه هذه الأمية جيدا لأنهم عندما أرادوا تعلييل المصدر الذي تلقى عنه حسب زعمهم أساطير الأولين لم يجروا أن يقولوا "كتبها" وإنما قالوا: "اكتتبها" أي كتبها

1 - الأب هنري لامانس (Lammens) (1869-1937): مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي، اشتهر بأبحاثه عن عرب الجاهلية والعهد الأموي، من مؤلفاته: « مهد الإسلام » و « مكة قبل الهجرة » و « الإسلام ». « خلافة معاوية » و « تاريخ سوريا ». أدار مجلة « المشرق » (المنجد، ص 490) .

2 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دط، دار الفكر. بيروت. دت، ص 310، 311.

3 - هوار كليمان (Huart) (1854-1927م) مستشرق فرنسي نشر "البدء والتاريخ" لمطهر المقدسي، ألف "تاريخ الأدب العربية" (المنجد، ص 600)

4 / 5 - محمد عبد الله دراز، ندخل، ص 137-139.

6 - الأعراف / 157.

7 - الجمعة / 2.

8 - العنكبوت / 48.

9 - الباقلائي أبو بكر، إعجاز القرآن، ج 1، ص 62، 63.

له غيره، { وقالوا أساطير الأولين أكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا }⁽¹⁾. وهنا يجب الإشارة إلى قضية في منتهى الأهمية، هي أنه يستحيل أن يكون محمد غير أمي، وإلا فإن الواقع يكذبه وسلاح محمد ﷺ الفعال هو الصدق، فكان -لو لم يكن أميا- أن الكفار يأتون إليه متهكمين مسرورين قائلين له: نعرف أنك لست أميا، فأنت كذاب. ولكنهم لم يفعلوا، بل أثبت القرآن الكريم الأمية لهم أيضا. ولم يجرؤا أن يكذبوا محمدا ﷺ في ذلك، فهم أيضا إذن أميون بالفعل، ولو كانوا غير ذلك فإن دعوة محمد ﷺ كلها تتحطم.

يضاف إلى ما سبق دليل آخر يبين استحالة تأثر محمد ﷺ بالتوراة والإنجيل وهو أن عصره لم تكن قد وجدت به توراة وإنجيل باللغة العربية⁽²⁾، بل الكتاب المقدس ذاته كان إلى ذلك الوقت لم يكتمل بعد، وكان محل أخذ ورد بين الطوائف النصرانية. وعدم وجود توراة وإنجيل بالعربية دليل قاطع على عدم تغلغل الفكرة اليهودية والنصرانية إذ لو كانت قد تغلغلت حقا في الثقافة والبيئة الجاهلية فمن غير المعقول والمفهوم أنه لا توجد ترجمة عربية للكتاب المقدس، وهناك حدث مؤكد فيما يتعلق بالعهد الجديد (الأنجيل) وهو أنه حتى القرن 4 هـ لم تكن قد وضعت له ترجمة عربية، وقد عرفنا هذا من مصادر الغزالي (ت 505هـ - 1111م) الذي اضطر أن يلجأ إلى مخطوط قبلي ليكتب رده على النصراني المتمثل في كتاب « الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل »⁽³⁾.

ولقد ذكر (الأب) شدياق الذي اضطر إلى البحث في كل جهة عن المصادر الإنجيلية التي استخدمها الغزالي في كتابه السابق الذكر حين كان يريد ترجمة كتاب الغزالي السابق ذكره، وذكر أن أول نص نصراني ترجم إلى العربية كان مخطوطا ومحفوظا بمكتبة القديس بطرسبرج. كتب حوالي عام 1060م بيد رجل يدعى ابن العسال⁽⁴⁾ ⁽⁵⁾. وقد اعترف بهذه الحقيقة (الدكتور) جراف GRAF⁽⁶⁾ الذي بين أن الكتاب المقدس المعرب لم يظهر إلا في القرن 9 أو 10. لأنه لم تكن حاجة لإنجيل معرب إلا في هذه الفترة⁽⁷⁾.

1 - الفرقان / 5.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 138-141.

3 - مالك بن نبي الظاهرة القرآنية، ص 311.

4- هو أبو إسحاق بن فخر الدولة أبو الفضل بن العسال. ولد ونشأ بمصر ينتهي نسبه إلى رجل قبلي أرثوذكسي اشتهر بإبن العسال عند النصراني. حضر المجمع الكنيسي الذي عقد بالإسكندرية سنة 1239م. وقد توفي بعد هذا المجمع (يوسف إيلان سرقيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة دط. مطبعة سرقيس. مصر. 1928. ج 1. ص 183، 184.

5 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 311.

6 - هو جورج غراف (GRAF) (1875م - 1955م) مستشرق ألماني. له بالألمانية "تاريخ الآداب العربية المسيحية" و" الآداب السريانية العربية" (المنجد، ص 388).

7 - محمد عبد الله وراز، مدخل، هامش ص 141

وهكذا لم تكن توجد ترجمة عربية للإنجيل في عصر الغزالي، فمن باب أولى عدم وجودها في العصر الجاهلي. يؤكد أيضا عدم تأثر محمد ﷺ بالكتاب المقدس أنه لم يثبت أن كان بمكة أو ضواحيها أي مركز ثقافي ديني يقوم بنشر فكرة الكتاب المقدس التي عبر عنها القرآن الكريم⁽¹⁾. ومع أن الكتاب المقدس بناء على ما سبق، كان حكرا على اللغات الأجنبية ولم يكن قد اكتمل بعد كما بينا أثناء حديثنا عن الأنجيل، فإنه كان أيضا حكرا لبعض العلماء الذين كانوا يعرفون تلك اللغات المكتوب بها، وكانوا لا يتنازلون عن بعض أوراق من التوراة إلا مع حرصهم على إخفاء الجزء الأكبر، ولقد وصفهم القرآن الكريم بالبخل بما عندهم منها « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا »⁽²⁾.

والآن توصلنا إلى أنه لم تكن توجد أي ترجمة عربية للكتاب المقدس عامة والأنجيل خاصة في العصر الجاهلي، فهل يمكن أن توجد بصفة خاصة ترجمة للعهد القديم "التوراة"؟ إن القرآن الكريم الذي يذكر لنا صدى ما دار من المجادلة بين النبي ﷺ وبعض أخبار اليهود بالمدينة يتحداهم قائلا : { قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين }⁽³⁾. فهذا دليل قاطع على أنه لم يكن يوجد من العرب من يقرأ العبرية وأيضا على أنه لم تكن توجد ترجمة عربية للتوراة⁽⁴⁾. وأيضا على إخفاء اليهود لما عندهم، مما يجعل على محمد استحالة تأثره بالكتاب المقدس، لأن المرء لا يمكنه أن يتأثر بكتاب لم يره، بل نجد القرآن الكريم يذهب إلى أبعد من هذا، وهو تحديه لليهود { قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين }⁽⁵⁾ فلو تأثر بهم ما ترددوا لحظة في فضحه واتهامه بأنه ينقل منهم ويبينون هذا للناس فيحطمون بذلك دعوته، وهم الذين كانوا يبحثون عن كل وسيلة لتحطيمه. ولكنه لم يثبت تاريخيا أنهم أثاروا قضية كهذه، فلو أخذ منهم ما ترددوا لحظة في فضحه وكشفه أيام أتباعه. ولكنهم لم يفعلوا، بل نجد محمدا ﷺ تحداهم بأكثر من هذا بعد أن شبههم بالحمير. وهو المباهلة، ولكنهم خافوا فرفضوها { مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا... قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين }⁽⁶⁾.

1 - مالك بن نبي، الظاهر القرآنية، ص 310-312.

2 - الأنعام / 91.

3 - آل عمران / 93.

4 - مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص 312.

5 - آل عمران / 93.

6 - الجمعة / 5-7.

بل نجد القرآن الكريم يذهب إلى أبعد من المباهلة فيبين أنه أتى لبني إسرائيل أنفسهم ليبين لهم وجه الصواب فيما هم مختلفون فيه { إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون } (1).

الآن ثبت لنا أن محمد ﷺ لم يتأثر لا باليهودية ولا بالنصرانية. لا بواسطة التلقي المباشر، ولا غير المباشر.

* محمد وبعض الشعراء العرب المتأثرون بأهل الكتاب : بعد أن تحققنا مما ذكرناه آنفا نتساءل: هل يمكن أن يكون محمد ﷺ قد تأثر ببعض الشعراء العرب المتأثرين باليهودية أو النصرانية أو ماشابهم؟ والجواب • أننا : نلاحظ :

• أولاً أن القرآن الكريم يبين لنا أن الشعر بالنسبة للرسول ﷺ لهو لا يليق بشخصه { وما علمناه الشعر وما ينبغي له } (2).

• وثانياً نتساءل: ماذا يمكن لمحمد ﷺ أن يتعلم من الشعر والشعراء أو الأدب والأدباء؟ وهنا نجد إتجاهين في الأدب الجاهلي.

الأول وهو أن بعض الشعراء مثل الأعشى كان يهتم بوصف التقاليد والطقوس الكنسية وهو ما لا نجد له أي أثر في القرآن كما قلنا قبلاً، كما نجد اهتمام هؤلاء الشعراء منصباً أكثر على شرب الخمر الذي سيوجه إليه القرآن الكريم ضربته القاضية بدلاً من تحبيذه. وهذه نقطة فاصلة بين الإسلام الذي يحرمه ويجعله من الكبائر والنصرانية التي تجعله من أقرب القربات إلى الله كما بينا في العشاء الرباني. وإذن فإن القرآن الكريم لا ينتمي إلى هذه الفئة.

وأما النوع الثاني من الشعراء فيكاد يتخصص في الأفكار الدينية، وأفضل نموذج لهذا النوع قصائد أمية بن أبي السلط. حيث يصف الدار الآخرة والقصص التوراتي وفي بعض المواضيع بنفس عبارات القرآن الكريم. فهل يمكن أن يكون خاتم الأنبياء تأثر به؟.

ولكي يناقش هذا الافتراض فلا بد من إثبات أسبقية شعر أمية تاريخياً للقرآن. ولكن هذا يستحيل إثباته لأن محمداً ﷺ وأمياً عاشا متعاصرين وكانا في نفس العمر تقريباً. فضلاً عن أن أمية عاش واستمر في قرص الشعر ما يقرب من 8 سنوات بعد نزول آخر آية من السور المكية التي يوجد تشابه بينها وبين شعر أمية مما يجعل ادعاء سبق هذا الشعر للقرآن تاريخياً، متهافتاً. يؤكد هذا أن أمية لم يدع أصالة ولا إلهاماً، بل إنه كثيراً ما عبر عن خيبة أمله وأسفه في هذا الشأن، مما يجعلنا نعتقد أنه هو الذي اندفع إلى التقليد لا محمد ﷺ بدليل أنه لم يجرؤ أحد من الكفار أن يتحدى محمداً ﷺ بشعر أمية عندما تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو حتى بسورة واحدة من مثله ولو مكذوبة. وعلى عكس ذلك.

لقد أعلن محمد ﷺ على مسمع من جميع معاصريه بأنه لم يتلق علمه من بشر، { إن هو إلا وحي يوحى } (1).

وكان خصومه دائما على يقظة تامة لأقل ثغرة ينفذون من خلالها ليوجهوا ضربتهم القاضية إلى دعوته. ألم يكن من الأيسر لهم أن يضعوا يده على مسروقاته المفضوحة من شعرامية الذي لم يكن قد جف مداده بدلا من أن يوجهوا حججهم في كل اتجاه وأن يلجأوا إلى كل افتراض. وصل إلى حد وصم الرسول ﷺ بالجنون لتفسير ظاهرة القرآن العجيبة «!؟» (2).

وأين هو أمية هذا الذي يسرق محمد من شعره ولا يحرك ساكنا، ولا يثور ضده ويفضحه؟ لماذا لم يدع أنه هو الذي علم محمدا ﷺ. ومادام عنده ذلك لماذا لم يثبت القرآن لنفسه؟ كيف يكون هو الذي ألهم محمدا القرآن الكريم ولا ينسبه لنفسه فيخلد به نفسه؟

إننا نخلص إلى نتيجة مؤكدة، هي أن القرآن الكريم هو الذي كان أساس الإنتاج الأدبي في عصر نزوله، كما كان يقينا أساسه في العصور التالية (3).

ولقد أكد هذه النتيجة ما قام به الأباء اليسوعيون في مستهل القرن 19م حيث قاموا بأبحاث مهمة جدا في هذا الموضوع لكي يبينوا مدى مساهمة شعراء النصرانية في الجاهلية. وقد انتهت أبحاثهم بمحصول أدبي عظيم ليس له من النصرانية سوى العنوان المذكور. وكان لهذا العمل العظيم نتيجة مفاجئة ذات مغزى، هي أنه قد برهن على عكس ما كان يريد مؤلفوه (4). وبهذا فإذا كانت النصرانية لم تؤثر حتى في الشعر الجاهلي فكيف تؤثر في القرآن الكريم؟!.

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق. هي انعدام أي مصدر لمحمد ﷺ يمكن أن يتأثر به (5)، خلال الفترة المكية كلها أي الثلاثة عشر سنة الأولى من بعثته ومن ميلاده إلى بعثته. ولم يبق إلا شئ واحد فقط أخذ منه محمد ﷺ القرآن كله هو الوحي.

* محمد ويهود المدينة : بعد إشارتنا لكل ما سبق. بقي لنا شئ آخر ننظره هو يهود المدينة، فهل يمكن أن يكون محمد ﷺ قد تأثر بهم بعد هجرته؟ ومع أن هذه القضية لا وزن لها علميا، لأن بعثته ﷺ كانت قد حدثت قبل ذلك بثلاثة عشر سنة. وأن المرحلة المكية كانت مرحلة البناء العقدي والعبادات والأخلاق إلخ. وفيها - وهذه القضية من الأهمية بمكان - نزل القصص القرآني الأساسي.

1 - النجم / 4.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل. ص 142-144.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل. ص 142-144.

4 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 310.

5 - محمد عبد الله دراز، مدخل. ص 150.

مما يعني بوضوح استحالة تأثره ﷺ بما كان عند اليهود. ومع هذا فلا بد من الإجابة على التساؤل. ولكي نجيب عليه، فلا بد من الإشارة إلى موقف القرآن الكريم⁽¹⁾ من اليهود لنرى ما إذا كان القرآن الكريم يعتبر مجتمعهم مثلا صادقا للفضيلة المنزلة من عند الله مما يجعله جديرا بالإتباع أم أنه على النقيض من ذلك؟ كما أنه لا بد من الإشارة إلى موقفهم من محمد ﷺ ورسالته. ومن خلال هذا نتوصل إلى الجواب الدقيق على التساؤل المطروح.

لقد أعلن اليهود عداوتهم لخاتم الأنبياء وأخذوا يكيدون له منذ كان في مكة المكرمة، فإليهم كان مشركو مكة يشدون الرحال لكي يرشدوهم إلى ما يعيبون به على النبي ﷺ، وكان لهم دور خطير في الحروب التي وقعت بين محمد ﷺ والمشركين ولا سيما في غزوة الأحزاب كما وقعت حروب كثيرة بينه ﷺ وبين اليهود مباشرة مع بني قينقاع وبني قريضة وبني المنظير وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء⁽²⁾.

والقرآن الكريم لا نكاد نجد فيه سورة من مكّيه ومكّبيّه، لا تشير إليهم إن بطريق أو بآخر، تفضحهم تبين ماضيهم السيئ وحاضرهم المقرف، مواقفهم مع أنبيائهم، عصيانهم لله عز وجل، اتخذوا عزير إليها، عبدوا العجل، يأكلون الربا، مجرمون، كذابون يعتقدون أنهم ليس عليهم حساب بشأن الطوائف الأخرى إلخ. وبعد الهجرة لم يغير القرآن الكريم موقفه تجاههم، وظل يبين ماضيهم السيئ وحاضرهم المقرف. فهم لا يراعون أحكام التوراة بإخلاص، يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، يأخذون الربا وقد نهوا عنه، يأكلون أموال الناس بالباطل، يقولون ليس علينا في الأميين سبيل. يقولون على الله الكذب وهم يعلمون. ليسوا عدولا في معاملاتهم. يقتلون الأنبياء، اتخذوا أجبارهم أربابا من دون الله. حملوا التوراة ثم لم يحملوها فهم مثل الحمير الحاملة للأسفار إلخ.

وهنا أليس من العجيب أن نفترض أن هؤلاء الذين يقف القرآن منهم هذا الموقف ويصدر عليهم تلك الأحكام الصارمة يمكن أن يكونوا نموذجا لمحمد ﷺ يقتدي به ويتخذ مصدرًا لتعاليمه؟ ورغم اقتناعنا باستحالة هذا إلا أننا نناقش القضية لإبطال التهمة محل الإبطال. ينطلق رجال الاكليروس والاستشراق من الإعتقاد في البرهنة على ادعائهم السابق بالقصص القرآني زاعمين أن محمدا ﷺ أعلنه في المدينة لا في مكة⁽³⁾.

1 - ما أورده في الموقف، بعضه أخذناه عن دراز، مدخل، ص 150، 151. وبعضه الآخر اقتبسناه من القرآن الكريم مباشرة. وقد أكتفينا بالإشارة إلى بعض النماذج. ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب الله عز وجل.
2 - ومن أراد التوسع في معرفة هذه الحروب مع اليهود فليرجع إلى أبي الحسن الندوي. السيرة النبوية، ص 266-274.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 151، 156.

والواقع أننا عندما نرجع إلى النص القرآني ذاته. نجد خطأ هذه الملاحظة التي ينطلقون منها لأنه يثبت لنا العكس. فالسور المكية هي التي تعرض أطوار القصص بتفاصيلها الدقيقة - مع الفرق الشاسع بين قصص القرآن وقصص الكتاب المقدس كما بينا أثناء حديثنا عن النبوة والأنبياء في الكتاب المقدس - ولم يترك للسور المدينة سوى فرصة إستخلاص الدروس منها وغالبا في تلميحات موجزة. ومع هذا فإنه يوجد كما ذكرنا فروق جوهرية بين قصص القرآن الكريم وقصص التوراة تؤكد توافق قصص القرآن مع العقل ومع معطيات العلم الحديث عكس قصص التوراة الذي يتناقض معها تناقضا صارخا، وهو ما يثير مشكلة مستحيلة الحل، ولكن ليس بالنسبة لقصص القرآن، بل لقصص التوراة. وقبل أن نشير إلى بعض تلك الفروق فإننا نرد على من زعم بأن محمدا ﷺ أخذ عن يهود المدينة. أن نتحداهم بأن يذكروا لنا اسم الشخص أو الأشخاص الذين تلقى محمد ﷺ منهم العلم. لم يتجرأ أي مؤرخ يقدر مسؤوليته العلمية أن يرد هذا التحدي. وهنا نشير إلى :

- موقف اليهود من محمد صلى الله عليه وسلم : لقد انقسم اليهود اتجاه محمد ﷺ إلى قسمين :

أ - **الغالبية العظمى** : وهذه هي التي يهمنها موقفها بسبب ذلك الموقف. كانت تعادي الإسلام قبل الهجرة وبعدها، أخفت علمها عنه حاولت خداعه وقتله، بثت المكائد في طريقه. وكانوا يطرحون عليه أسئلة محرجة بواسطة إخوانهم المشركين عن الروح وعن بعض الألغاز التاريخية كأصحاب الكهف، كما كانوا ينكرون أحيانا نصوصا أكد الرسول ﷺ وجودها في كتبهم ولا يقرون بها إلا بعد تحديهم وإثبات غشهم { كل الطعام كان حلالا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فمن... قل صدق الله }⁽¹⁾. وهنا من أعلم محمدا ﷺ هذه الحقيقة؟ لماذا لم يحتجوا عليه قائلين: لقد أخذت هذه المعلومة من التوراة؟ ولكن كيف يحتجون والآية ذيلت بما لا يدع مجالاً لشك أو لبس أن مصدر تلك المعلومة هو الوحي. والواقع التاريخي يبين أنهم كانوا بالفعل يحنون رؤوسهم انهزاما واعترافا رغم الجحود أمام هذا النص وغيره. ولقد بلغت بهم السفاقة أن طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم من السماء كتابا مدونا { يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات }⁽²⁾ ⁽³⁾. وظل الصراع بين خاتم الأنبياء ﷺ وبينهم ولم يقتصر الصراع على الجانب الفكري بل تعداه إلى تدبيرهم المؤامرات الواحدة تلو

1 - آل عمران / 93-95.

2 - النساء / 153.

3 - محمد عبد الله دراز مدخل، ص 162.

الأخرى للقضاء على الرسول ﷺ وعلى الإسلام « حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »⁽¹⁾. وظل القرآن الكريم يفضحهم ويحلل نفسياتهم ويكشف خباياها { قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر }⁽²⁾. وهكذا كان اليهود بعيدين كل البعد عن موقف الملحق المتصف بالترحيب⁽³⁾.

وهنا نقدم ملاحظات تتمثل فيما يأتي :

طولية الفترة المدنية وحتى قبل الهجرة، لم يزعم اليهود أن محمدا ﷺ أخذ عنهم، أو أن أحدهم علمه، وقد تبين لنا أن الصراع بينه وبينهم كان وظل على أشده من بعثته إلى وفاته، فلو أخذ عنهم فكيف يغفلون عن فرصة ذهبية يحطمونه بها تحطيمًا نهائيا وهي إثبات أنهم أساتذته، أو أنه سرق منهم، ولكن الذي ثبت هو تحدي محمد ﷺ لهم بأن يستدلوا على صدقه وصدق رسالته من التوراة ذاتها { قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين }⁽⁴⁾، بل بين القرآن ليس هذا فحسب، بل { إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون }⁽⁵⁾. بل وصل الأمر بالقرآن الكريم أن

تحداهم بعد أن شنع عليهم وحط من قدرهم بسبب فسادهم وكفرهم وإنكارهم نبوة محمد ﷺ فقال :

{ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بيس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين }⁽⁶⁾. وما يهمننا هنا

أكثر هو { قل يا أيها الذين هادوا... صادقين }⁽⁷⁾. أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى وأن محمدا ﷺ

وأصحابه على ضلالة، فادعو بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين فيما تزعمونه. قال

تعالى: { ولا يتهنون أبدا بما قدمت أيديهم }⁽⁸⁾. أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور⁽⁹⁾.

والواقع أن هذه مباهلة بين النبي ﷺ واليهود. وقد بين القرآن الكريم أنهم - ليس في تلك

اللحظة، لحظة المباهلة فحسب - بل في المستقبل الأبدى أيضا : لن يتمنوا الموت، ولذلك رفضوا

المباهلة. لماذا رفضوها؟ لماذا رفضوا أن يدعوا على أنفسهم بالموت؟. يجيب القرآن الكريم :

1 - البقرة / 109.

2 - آل عمران / 118.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 162.

4 - آل عمران / 93.

5 - النمل / 76.

6 - الجمعة / 5-7.

7 - الجمعة / 6.

8 - الجمعة / 7.

9 - ابن كثير اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج 4 ص 364.

{ ... بما قدمنا أيديهم } (1). أي بما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد ﷺ (2). وفي الحديث « والذي نفسي بيده لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلامات » (3). وهذا يعني بكل وضوح. أنهم كانوا متأكدين من نبوة محمد ﷺ وإلا ما رفضوا المباهلة التي كانت بالموت لأن الحياة عندهم عزيمة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ولهذا قال تعالى : { ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليهم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة } (4). فهم أحرص على الحياة حتى من المشركين الذين لا كتاب لهم أي على طول العمر لما يعملون من عاقبتهم الخاسرة عند الله. ولكن ما يحاذرون منه واقع لا محالة « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » (5) (6). والنتيجة من هذا :

إقامة الحجة عليهم، لأنهم رفضوا المباهلة، والذي يرفض يكون رفضه دليلا على يقينه من فساد زعمه وصواب ما عند خصمه ولو كان النبي ﷺ أخذ عنهم ما ترددوا في المباهلة وما ترددوا في فضحه وبيان سرفاته منهم أو تبين علمائهم الذين لقنوه، بل ما كانت المباهلة أصلا لأن الذي دعا إليها وتحداهم بها هو القرآن الكريم وليس هم. بل هم رفضوها كما ذكرنا. وفي هذا السياق، فإنه كما رفض اليهود المباهلة، وهي دليل مادي ومعنوي على صدق الرسول ﷺ وإثبات نبوته وأنهم لم يكونوا أسأتدته وأن كل ما قاله القرآن الكريم عنهم صحيح. رفض كذلك النصارى المباهلة، ويتمثل ذلك في وفد نصارى نجران الذين أتوا رسول الله ﷺ في المدينة. فلما أقام الحجة عليهم مناظرة عندوا فدعاهم بأمر القرآن إلى المباهلة « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » (7). فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض « والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية وبعث معهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح أمينا » (8).

1 - الجمعة / 7.

2 - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط 4. دار القرآن الكريم، بيروت. 1981 م. 3 ص. 380.

3 - تفسير القرطبي 96/18 نقلا عن محمد الصابوني، المرجع السابق، ص 380. وقد روي الحديث بطرق مختلفة والألفاظ متقاربة منها قوله (ص) : « ... ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله (ص) لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا » رواه البخاري والترمذي والنسائي وأحمد.

4 - البقرة / 95، 96.

5 - البقرة / 96.

6 - ابن كثير اسماعيل. تفسير القرآن العظيم، م 1. ص 127.

7 - آل عمران / 61.

8 - ابن كثير اسماعيل، تفسير القرآن العظيم م 1. ص 127.

وملخص هذه المباهلة أن رؤساء الوفد المكون من 60 راكبا من نجران قدموا المدينة وجعلوا يحاجون خاتم الأنبياء: ﷺ في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فحاجهم النبي ﷺ ودعا حبري الوفد إلى الإسلام فقالوا قد أسلمنا. قال ﷺ إنكما لم تسلما فأسلما، قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال ﷺ: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعائكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير» قالوا: فمن أبوه يا محمدا؟ -يقصدون عيسى- فصمت رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها... فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك أي للمباهلة. فقالوا: يا أبا القاسم: دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بـ "العاقب" وكان ذا رأي فيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمدا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم -المسيح عليه السلام- ولقد علمتم أنه مألأ عن قوم نبيا قط ما بقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للإستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي ﷺ وكان قد أتى بأهل بيته للملاعة -فقالوا: «يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك و نرجع على ديننا»⁽¹⁾، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالها فإنكم عندنا رضا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه⁽²⁾. وما يهنا هنا: أن النبي ﷺ تحدى وفد نصارى نجران بالمباهلة كما تحدى اليهود بها، فخاف النصارى

أيضا ورفضوا بل ارتضوا دفع الجزية على كثرتهم حيث كانت نجران تتكون من 73 قرية و120 ألف مقاتل⁽³⁾، بل ارتضوا أن يبعث النبي ﷺ معهم أحد أصحابه ليحكموه فيما اختلفوا فيه، أي فضلوا أصحاب محمد على رؤسائهم الدينيين والزمنيين. وهذا له دلالاته.

- لم يحتجوا على محمد بأنه أخذ عن الكتاب المقدس أو علمه نصراني. ولو كان كذلك لما فوتوا هذا وهم يبحثون عن شتى الوسائل لتحطيمه وتحطيم رسالته وقد تجشموا أتعاب السفر من نجران إلى المدينة المنورة سنة 9 هـ.

لماتوا

1 - قال رسول الله (ص) عن اليهود والنصارى الذين تحداهم بالمباهلة «... ولو أن اليهود تمنوا الموت أولرأوا ولن يخطوا مقادهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله (ص) لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا» رواه النجار البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به، وقال الترمذي حسن صحيح. ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقي عن قررة عن عبد الكريم بن مالك الجزري عن عكرمة عن ابن عباس (ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 369).

2 - المرجع نفسه، ص 368.

3 - المرجع نفسه، ص 370.

- القرآن الكريم أثبت أن هناك قصصا عن عيسى عند النصارى ولكنه غير صحيح. وأما القصص الصحيح فهو الذي أورده القرآن في أمر عيسى وفي غيره. وقد أورد هذا في معرض تحدي نصارى نجران بالمباهلة. وهذا يعني أن محمدا ﷺ أتى ليصحح أخطاء الكتاب المقدس لا ليستلهمه. وها هو النص القرآني { فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم، ... إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين } (1): أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد، وأنه لا إله إلا الله، وأن من عدل عن هذا القصص أو هذا المفهوم للألوهية "فإن تولوا" فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء (2) إلخ.

وهكذا تحدى محمد ﷺ أهل الكتاب جميعا يهودا ونصارى، ومن أهم ما تحداهم به المباهلة، وقد رفضاها، كلاهما، ويستحيل أن يأخذ عنهما ثم يتحداهما بالمباهلة لأنها القاسمة، ورفضهما معا لها دليل على عدم تأثره بهما. وهنا نضيف دليلا له أهميته القصوى يفند مزاعهما أيضا هو أنه ﷺ أعلن من مكة ثم من المدينة أيضا أنه مبعوث للناس كافة بما في ذلك اليهود والنصارى، فكيف يقبل العقل أن يستلهم من اليهود والنصارى ثم يقول لهما إني رسول الله إليكما؟ حتما كانوا سيقولون له: بماذا أنت رسول الله إلينا؟ أما أخذته منا من ألوهية وتشريع وقصص وأخلاق وتنبؤ بالمستقبل إلخ. إنك تلميذنا ونحن أساتذتك. ولكن الذي وقع أنه لا أحد منهما اعترض بهذا، بل الذي وقع أن أغلب النصارى دخلوا في الإسلام أفواجا في الشام ومصر وبلدان المغرب العربي وغيرها وتحولت هذه الملايين من الكيلومترات المربعة من نصرانية إلى إسلامية وتحول ملايين سكانها من نصارى إلى مسلمين، بل أصبحوا من أكبر الناشرين للإسلام ومن الفاتحين وهكذا صدق تنبؤ وتحدي القرآن { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا } (3).

وإذا كان أغلب أولئك النصارى أسلموا فكان إسلامهم دليلا صادقا على فساد التهمة، فإن بعض أكبر أحبار اليهود أسلموا أيضا. وهذا يدعونا إلى الإشارة للقسم الآخر من اليهود رغم قلته.

ب - الأقلية من اليهود : ويمثلون فريقا من علماء بني إسرائيل ضاقوا ذرعا بادعاءات

اليهود العنصرية وبغورورهم الذاتي "شعب الله المختار" فجاءوا إلى الرسول ﷺ ليستمعوا إلى تعاليمه ويتحققوا من شخصه بناء على صفاته الموجودة في كتبهم فعرفوه لأنهم كانوا { يعرفونه كما يعرفون أبناءهم } (4). فآمنوا به وقد بين القرآن الكريم حال هؤلاء بقوله: { الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته

1 - آل عمران / 61-63.

2 - ابن كثير اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 371.

3 - الفتح / 28.

4 - البقرة / 146.

أولئك يؤمنون به { (1)، وأشهر شخصية في هذا الفريق سيدنا عبد الله بن سلام رضي الله عنه، والظروف التي أعلن فيها إسلامه لها دلالة عظيمة، لأن اليهود كانوا يعتبرونه أوسعهم علماً وأحسنهم خلقاً، وذلك قبل إعلان إسلامه مباشرة . فلما أعلن إسلامه أنكروا عليه كل ذلك بعد اتخاذه قراره مباشرة وفي نفس الجلسة (2) (3). وهو ما يعطينا فكرة جيدة عن طبائع اليهود.

وقبل أن نختم حديثنا هذا عن يهود المدينة فإننا نشير إلى قضية لها أهميتها القصوى في نظرنا تبين استحالة تأثر محمد ﷺ بهم في القصص - وذلك إضافة لما ذكرناه قبلاً - هو أن القصص عن الأنبياء السابقين إنما كان بمكة كما ذكرنا قبلاً، والآيات القليلة أو حتى الكثيرة التي نزلت بالمدينة تتعلق في أغلبها بالحقائق الدينية النصرانية التي ينكرها اليهود تماماً.

* وبعبارة أخرى: قصص القرآن المتعلق بالتوراة وبالعهد القديم الذي يؤمن به اليهود مكى أي نزل على محمد ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

وقصص القرآن المتعلق بالمسيح الذي لا يؤمن به اليهود نزل بالمدينة.

وهكذا فمهما حاول رجال الإكليروس والإستشراق أن يثبتوا تأثر محمد ﷺ بالكتاب المقدس مستدلين على ذلك ببعض نقاط التشابه بين ما ورد في القرآن وما ورد بكتبهم فإن جهودهم هذه هباء منثور، وجهد ضائع، لأنهم اصطنعوا أسلحة تفيد منها المبادئ القرآنية التي يبين القرآن أنها موجودة في الكتب المنزلة السابقة { وإنه لفي زبر الأولين } (4) (5) ولكنها حرقت فأتى محمد لتصحيحها.

1 - البقرة / 121.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 163.

3 - وقصة إسلامه أنه كان حبراً يعرف صفات النبي (ص) واسمه وزمانه. وكان كاتماً هذا حتى قدم رسول الله (ص) المدينة، وكان عبد الله بن سلام في رأس نخلة له يعمل فيها وعمته خالدة بنت الحارث تحته جالسة، فلما سمع خبر قدوم رسول الله (ص) كبرت فقالت له عمته حين سمعت تكبيره: خبيك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمة مازدت قال: فقلت لها: أي عمه. هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به... فقالت: فذاك إن، قال: ثم خرجت إلى رسول الله (ص) فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا. وأسلمت عمته خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها، وكنتم إسلامه من اليهود ثم ذهب إلى رسول الله (ص) وقال له: يارسول الله: إن اليهود قوم بهت [البهت: الباطل] وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغييني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني، ففعل رسول الله ذلك ودخل عليه اليهود... ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا، فخرج عليهم وأخبرهم بإسلامه وقال لهم: يامعشر يهود: اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون بأنه لرسول الله (ص) تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته... فقالوا: كذبت ثم وقعوا به، قال: فقلت لرسول الله (ص): ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور، قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها: (ابن هشام، السيرة النبوية، م 1، ص 516، 517).

4 - الشعراء / 169.

5 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 164.

لَمْ ، وَلَا، وَلَنْ يُوْجَد ، فِي الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ مِنْ يَصْلِحُ أَنْ يَكُونَ أَسْتَاذًا
لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بناء على كل ما سبق نطرح السؤال الموضوعي الآتي: هل كان في البشرية جمعاء -يهودا ونصارى وغيرهم- من يصلح أن يكون معلما لمحمد ﷺ؟.

ننظر إلى القرآن الكريم. فماذا يقول في علماء عصره من يهود ونصارى؟ لينظر بورغاد وأهل ملته في البقرة وآل عمران وما فيهما من المحاوراة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتواريخ والأحكام، أو ليقروا ما شاءوا من السور المكية والمدنية التي تتحدث عن أهل الكتاب، ولينظروا بأي لسان يتكلم عنهم القرآن «وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات»⁽¹⁾.

وهاهي نماذج من وصفهم وتفنيدهم وأغلاطهم ومغالطاتهم التاريخية:

{ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون... قلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون }⁽²⁾. { أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله... وما الله بغافل عما تعملون }⁽³⁾. { إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة }⁽⁴⁾. { كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل... من قبل أن تنزل التوراة، قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين }⁽⁵⁾.

وهاهي بعض من وصفه وتفنيده لخرافاتهم الدينية: { وما مسنامن لغوب }⁽⁶⁾. { وما كفر سليمان }⁽⁷⁾. { لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء }⁽⁸⁾. { وقالت اليهود يد الله مفلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا }⁽⁹⁾.

1 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 59.

2 - آل عمران / 65، 66.

3 - البقرة / 140.

4 - آل عمران / 96. وهي جواب عن قولهم: قبلتنا قبل قبلكم (محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، هامش رقم 4، ص 59).

5 - آل عمران / 93، وهي رد لدعواهم أن الإبل كانت محرمة على إبراهيم (المرجع نفسه، هامش 5 ص 59).

6 - ق / 38، وهي تكذيب لقولهم إن الله بعد أن خلق الخلق في ستة أيام استراح في اليوم السابع (المرجع نفسه، هامش 6، ص 59).

7 - البقرة / 102، وهي تبرئة له من زعمهم أنه كان يعبد الأصنام ويبني لها المعابد وهو ما بيناه قبلا أثناء حديثنا عن النبوة والأنبياء في الكتاب المقدس.

8 - آل عمران / 181.

9 - المائدة / 64.

- { وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله }⁽¹⁾. { وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ... بل أنتم بشر ممن خلق ... لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم - { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة }⁽²⁾. { قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله }⁽³⁾.

وهكذا صور القرآن الكريم علماء الدين في زمنه ولا سيما علماء النصارى في قمة الإنحراف والكفر والشرك ولقد كان طابع الشرك في ديانتهم لا يخفى على أحد حتى إن الأميين فطنوا له فاتخذوا منه عزاء لهم في شركهم { ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا آلهتنا خير أم هو }⁽⁴⁾. بل اتخذوا منه حجة على أن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن بدع في الدين لم يسبق إليه، فقالوا « ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة »⁽⁵⁾، يعنون ملة النصرانية⁽⁶⁾، وهذا إبطال لدعوى بورغاد أن النبي ﷺ تعلم التوحيد النصراني المخلوط بالشرك حيث تعلمه من القبائل العربية إلخ، بل الشرك كان موجودا في ملة بورغاد بهذه الشهادة التاريخية للعرب الوثنيين والتي لا تقدر بثمن لنفاستها، ولقد أثبتت عكس ما زعمه بوغاد. فهي أثبتت الوجدانية الصرفة المطلقة في الإسلام والشرك في النصرانية، وهكذا يظل القرآن حجة يفحم أعداءه عبر العصور.

وهاهي سلسلة أخرى من جرائمهم يسردها القرآن الكريم متواصلة الحلقات :

- { فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا و بكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ... وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل }⁽⁷⁾.

« فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يتلقى عنهم صاحب القرآن علومه أم بالعكس ترى منه معلما يصحح أغلاطهم وينعي عليهم سوء حالهم. لا ننكر أنه كان في أهل الكتاب قليل من العلماء الراسخين، لكن الراسخون في العلم منهم آمنوا بالقرآن ونبي القرآن { قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب }⁽⁸⁾. فلو كانوا له معلمين لآمنوا بأنفسهم بدل أنه يؤمنوا به »⁽⁹⁾.

1 - التوبة / 30.

2 - المائدة / 18، 72، 73.

3 - آل عمران / 64.

4 - الزخرف / 57.

5 - ص / 7.

6 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 58-60.

7 - النساء / 155-161.

8 - الرعد / 43.

9 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 60-61.

ثم ما هو حال علمائهم مع كتبهم؟ يقول القرآن عنهم بأنهم كانوا تارة : { يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا }⁽¹⁾. وتارة: { يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون }⁽²⁾. وتارة { يحرفون الكلم عن مواضعه }⁽³⁾. وتارة يبتزون الكتب فيظهرون بعضها ويخفون البعض الآخر { قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى... تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا }⁽⁴⁾. وتارة يحتاجون بمحفوظهم، فإذا قيل لهم { فاتوا بالتوراة فاتلوا إن كنتم صادقين }⁽⁵⁾. بهتوا ولم يجيبوا، وأحيانا يأتون بها فيقرءون ما قبل الشاهد وما بعده ويسترون بكفهم مكان النص المجادل فيه كما وقع في قصة الرجم.

فجاء القرآن يرميهم علنا باللبس والكتمان { يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون }⁽⁶⁾. بل جاء كاشفا لما ستروه مبينا لما كتموه حاكما فيما اختلفوا فيه { يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب }⁽⁷⁾. { إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين }⁽⁸⁾. { تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم... وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون }⁽⁹⁾.

ولقد علق دراز على هاتين الآيتين ما نصه: « انظر إلى هذه الآيات من سورتي النحل والنمل المكييتين كيف جعلت من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب، بل جعلته أول تلك

1 - البقرة / 79.

2 - آل عمران / 78.

3 - المائدة / 13.

4 - الأنعام / 91.

5 - آل عمران / 93.

6 - آل عمران / 71.

7 - المائدة / 15.

8 - النمل / 76، 77.

9 - النحل / 63، 64.

المقاصد حيث بدأت به وثنت بالهدى والرحمة للمؤمنين»⁽¹⁾. ويواصل دراز كلامه قائلا :
« ونعود للمرة الثالثة فنقول لمن يزعم أن محمدا كان يعلمه بشر: قل لنا: ما اسم هذا المعلم؟ ومن ذا
الذي رآه وسمعه؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟ »⁽²⁾.

* لا شيء في الكتاب المقدس يصلح لأخذ محمد (ص) منه

والآن: نتساءل مندهشين ومتعجبين: ماذا يوجد في الكتاب المقدس حتى يأخذ منه محمد ﷺ؟
لقد ذكرنا قبلا أنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد من البشر أوحى من الجن من يصلح أن
يتلمذ عليه محمد ﷺ. ونضيف إلى ذلك بأنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد أي كتاب بشري أو حتى
جني يصلح أن يأخذ منه محمد ﷺ.

ولا يوجد أي شيء في الكتاب المقدس يصلح أن يأخذه محمد، ونصيغ هذا بعبارة أخرى
فنقول: ماذا يوجد في الكتاب المقدس حتى يأخذ منه محمد ﷺ؟

- هل يأخذ العقيدة. عقيدة محمد أساسها التوحيد الصرف، والتنزيه المحض والتجريد المطلق
تخلصها سورة الإخلاص، وعقيدة الكتاب المقدس لا تقوم إلا على الحط من الله عز وجل ووصفه
بجميع الأوصاف البشرية القبيحة. فهل يأخذ عقيدة عهده القديم فيأخذ منه أن الله عز وجل لم يعرف
مكان آدم في الجنة وأن الله قلق كثيرا بعد أكل آدم من شجرة المعرفة فأنزله إلى الأرض خوفا من أن
يأكل من شجرة الخلد فيظفر بالخلود؟.

هل يأخذ منه أن الله تغذى عند إبراهيم بعجل وسمن وخبز ثم نام ليسترخ، وأنه تصارع مع
يعقوب ولم يتمكن منه فاضطر للرضوخ لإرادته ومنحه لقب أسرائيل؟ هل يأخذ منه ما ذكرناه من
أوصاف هذا الإله العاجز المجسد إلخ كما بينا في الألوهية في العهد القديم؟

2/1 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 62، 63. ونشير هنا إلى أن الوثنيين المكيين اتهموا النبي (ص) بأنه
كان يعلمه بشر، وسبب هذه التهمة الوحيد أن يدعوا عن أنفسهم معرفة السكوت والإفحام بأي صورة تتفق صدقا أو
كذبا. ولكن هذا البشر رأوا أنه يجب أن يتوفر فيه شرطان أحدهما أن لا يكون منهم لقناعتهم بأنهم كانوا أجهل من أن
يعلموا رجلا - هو محمد (ص) - جاءهم بها لم يعرفوه هم وأباؤهم وليمكن أن يقولوا: إن عند هذا البشر علم ما لم
يعلموا. وثانيهما أن يكون من سكان مكة ليروجوا دعوة أنه يلاقيه ويصلي عليه بكرة وأصيلا. ووجدوا ضالتهم في حداد
رومي نصراني كان عامي الفواد، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه لا
مكانة له بين علماء النصارى واليهود ولم تكن متفرغا لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها. بل كان متفرغا
للحدادة. وقد بين القرآن الكريم تهافت هذا الإدعاء¹ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلم البشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي
وهذا لسان عربي مبين» (النحل / 103). (دراز، المرجع نفسه، ص 64) وهكذا يكون القول بفكرة الحداد الرومي
أضحوة تاريخ وإلا لماذا لم ينسب القرآن لنفسه وأعطاه لمحمد صلى الله عليه وسلم؟ .

أم يأخذ منه إله العهد الجديد، فيأخذ عقيدة أن الله (الإبن) مولود غير مخلوق وأن الله قتله اليهود وضرب وبصق في وجهه وكان يرتجف خوفا من الصليب ويقول إن نفسي حزينة حتى الموت واختفى خوفا ودل عليه تلميذه وفر منه جميع تلاميذه. وأنه نتج عن زنا المحارم وأنه ابن يوسف النجار؟ وهل يأخذ عقيدة الأقباط أم الكاثوليك أم الأرثوذكس أم البروتستانت أم المارونيين. هل يأخذ منه أن الله ثلاثة وأن الثلاثة تساوى واحدا؟!

إن كل هذا يتناقض تناقضا مطلقا مع العقيدة التي أتى بها محمد ﷺ والتي لا تصف الله عز وجل إلا بما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، ولقد بينا قبلا أن النصرانية هي التي تأثرت بالإسلام، وأشرنا قبلا إلى قضية عبادة الثمائل والمجامع التي عقدت بشأنها، وكيف كان الإسلام ملاذ ملايين النصارى. الذين دخلوا فيه أفواجا لأنهم وجدوا به ضالتهم وحمائتهم حتى من بعضهم البعض.

ولما كان محمد ﷺ لم يأخذ عقيدة لا من اليهود ولا من النصارى، وكانت العقيدة هي لب الدين وروحه فإن تأثر محمد باليهودية أو النصرانية قضية مستحيلة الوقوع.

- وهل يأخذ الشريعة؟ لقد تبين لنا أثناء ردنا على بورغاد في اتهامه لشريعة القرآن بأن محمدا ﷺ أتى بشريعة صالحة لكل زمان ومكان وأنها وحدها التي حلت مشكلة الإنسان وقادرة على حلها آنا ومستقبلا وأنها تختلف اختلافا جذريا عن اليهودية والنصرانية وسنبيين في الإعجاز التشريعي أنها الشريعة الوحيدة في الوجود التي لم تتأثر بالقانون الروماني و لا بما كان يوجد في الكون زمن البعثة وسيظهر لنا أنها تذبذبا مطلقا كل شرائع الوجود السابقة عليها والمعاصرة لها والتي أتت بعدها إلى الأبد. وأن هذه الشريعة إلى الآن رغم حالة المسلمين السيئة إلا أنها جعلتهم أقل الناس إجراما.

- وهل تأثر محمد ﷺ بأخلاق اليهود والنصارى؟ لقد تبين لنا قبلا أخلاق اليهود من خلال ما وقع بينهم وبين النبي ﷺ وكيف حل القرآن نفسياتهم وكشف بواطنهم ومكنونات نفوسهم هم والنصارى على السواء وبيننا الصراعات التي كانت موجودة داخل الأكليروس ونقشي الأمراض التي لا حل لها كالتسيمونية والشذوذ والزنا وما إلى ذلك. ولكن محمدا ﷺ كان هو نفسه الخلق، فهم إذن ليسوا قدوة، والتطور التاريخي يبين هذا، فهم الذين اعتنقوا الإسلام بالملايين وليس العكس.

- وهل تأثر بقصص الكتاب المقدس؟ وماذا يوجد فيه حتى يتأثر به محمد ﷺ؟ هل يأخذ منه إبراهيم الديوث والمتزوج بأخته، أم لوط السكير الزاني بابنتيه أم سليمان العابد للأصنام أم قصة شمشون ودليلة أم قصة أهولة وأهلبية أم نسب المسيح؟ أم ماذا؟.

لقد تبين لنا أثناء حديثنا عن النبوة والأنبياء في الكتاب المقدس أن محمدا ﷺ هو الذي أعاد الإعتبار للنبوة والأنبياء، وبوأ الأنبياء مكانتهم اللائقة بهم باعتبارهم رسل الله إلى البشرية لتبصيرها بالدين الصحيح. ولما كان اليهود والنصارى المعارضين والمحاربين لمحمد ﷺ من بعثته إلى وفاته

إلى الآن، فإن مصلحته الشخصية -وهي منطق المعارضة والصراع- لو لم يكن نبيا- هي أبرا زما يقوله الكتاب المقدس بعهديه في أنبياء بني إسرائيل وهم كما بينا: لقطاع، زناة، كذابون سفاكون للدماء عبدة أصنام...، منطق المعارضة يقتضي إبراز هذه الصفات القبيحة و التوسع فيها ونشرها ليحطم بها معارضته.

ولكنه ﷺ بدل هذا عمل ضد ما يمكن اعتباره مصلحته الشخصية وبوأ أنبياء بني إسرائيل مكانتهم الحقيقية، فهل يمكن لمعارض أن يعمل على الرفع من قيمة معارضيه أم يعمل على تحطيمهم لتبقى الساحة له وحده فيحقق أغراضه؟ ولكن محمدا ﷺ شذ عن القاعدة لسبب واحد هو أن ماقاله عن أنبيائهم إنما هو وحي أوحى إليه من الله عزوجل.

وإذن فإن القرآن معجز، وهذا أحد جوانب إعجازه ومحمد نبي رسول ﷺ، وإلا من أين لمحمد الأمي المبعوث في الأميين أن لا يعرف القصة فحسب، بل يصحح أخطاءها ويضعها في سياقها الإلهي. ولو نقل عن العهد القديم أو الجديد لوقع في أخطائهما لأنه لا يمكن أن يكون التقليد أصح من الأصل، ولكن الذي تبين لنا قبلا أن محمدا ﷺ كان بمثابة الأستاذ الذي يأخذ القلم الأحمر ويصحح الكتاب المقدس.

وهكذا لم يبق لنا إلا مصدر واحد لمعرفة مصدر القصص القرآني والقرآن ومحتواه كله، هذا المصدر هو الوحي، هو القرآن ذاته. وهو الذي يبين عن هذا القصص: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين} (1). ويقول مثلا عن مريم: {ذلك من أبناء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} (2). ويقول عن قصة نوح: {تلك من أبناء الغيب نوحينا إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا} (3). ويقول عن قصة يوسف: {ذلك من أبناء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ جمعوا أمرهم وهم يمكرون} (4). ويقول عن موسى: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوريا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتتذرن قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون} (5).

وهكذا يبين القرآن الكريم أنه لا محمد ولا قومه كانوا يعرفون هذا القصص. ويستحيل أن يكون محمد عارفا به أو قومه. وإلا تحطمت رسالته كلها لأن الواقع سيكذبه حيث يأتيه قومه محتجين

1 - يوسف / 3.

2 - آل عمران / 44.

3 - هود / 49.

4 - يوسف / 102.

5 - القصص / 44-46.

قائلين له أنت تكذب لأننا نعرف هذا القصص وأنت تعرفه. ولكنهم لم يفعلوا وهم الذين كانوا يبحثون عن أي دليل يحطمونه به فكيف يجدون دليلا ماديا قويا يحطمون به محمدا ﷺ ولا يستخدمونه؟⁽¹⁾ ولكنهم كانوا يردون عليه قائلين « وقالوا ما هذا إلا أساطير الأولين » وكما لم يحتج العرب لم يحتج اليهود والنصارى، وبهذا يتبين لنا بجلاء:

أن مصدر هذا القصص هو الله عزوجل وهو أحد جوانب إعجاز القرآن الكريم وأنه صحيح عكس قصص الكتاب المقدس { إن هذا لهو القصص الحق }⁽¹⁾.

وإذن فالقرآن معجز ومحمد نبي رسول.

الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم

لقد تضمن القرآن الكريم تشريعا دقيقا متكاملا لكل شئون الحياة أعجز علماء التشريع والقانون مما جعلهم يعقدون المؤتمرات الفقهية في أنحاء مختلفة من أروبا ذاتها. وأجمع علماء الفقه والقانون على اختلاف نحلهم وملهم على أهمية الفقه الإسلامي وروعه وضرورة دراسته والإستفادة منه⁽²⁾.

الفقه الذي يقال عنه هذا في هذا الزمن إنما يعود مصدره إلى ما قبل 14 قرنا وأنه ظهر بين أناس يعيشون حياة بدائية لا ثقافة لهم تعقد حياتهم أو تؤلف منهم تركيبا اجتماعيا يحتاج إلى قانون، وإن وقعت مشكلة احتكموا إلى أعراف قبيلتهم السائدة، عندما نتأمل هذا ندرك أن التشريع القرآني من أهم مناجي إعجاز القرآن الكريم⁽³⁾ لأنه لا مصدر بشري لمحمد ﷺ سوى أعراف قبيلته وثقافته، وحالها ما سبق، أو القوانين العالمية في عصره، وهذا يدعونا إلى المقارنة بين شريعة القرآن بتلك القوانين من جهة ليظهر لنا عدم تأثر شريعة القرآن بل وتفوقها، كما نقارن شريعة القرآن أيضا بالقوانين الوضعية الحالية ليظهر لنا تفوقها أيضا وهو ما يثبت أن القرآن من عند الله وأن محمدا نبي.

إن الشرع الذي اقترن بظهور محمد ﷺ هو القانون الروماني الذي كان مسيطرا في التطبيقات العلمية والقضائية في مصر والشام وغيرها من البلدان المجاورة للبلاد العربية والمحيطية بها من الغرب والشمال، هذا القانون الروماني يقول عنه علماء القانون اليوم بأنه من أكمل الشرائع التي تفنق عنها العقل البشري. وكل القوانين الحالية اليوم - ما عدا الإسلامية - تفرعت عن أصوله وقامت على دعائمه. ولذلك فإن من أراد معرفة منزلة الشريعة الإسلامية وأنها فوق مستوى العقل البشري

1 - آل عمران / 62.

2 - ومن ذلك المؤتمر الذي عقدته شعبة الحقوق الشرقية من "المجمع الدولي للحقوق المقارنة" في كلية الحقوق بجامعة باريس للبحث في الفقه الإسلامي، وذلك في عام 1951 م وقرر المؤتمر في نهايته بالإجماع أن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها، كما أعلنوا عن رغبتهم في أن يظل أسبوع الفقه الإسلامي يتابع أعماله سنة فسنة، وفي أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي لتيسير الرجوع إلى مؤلفاته وتكوين موسوعة فقهية أيضا لتسهيل معرفة أحكام الشريعة ومبادئها (محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، هامش ص 159).

3 - المرجع نفسه، ص 158، 159.

فليقارن بينها وبينه⁽¹⁾. وقبل المقارنة ننظر: كيف تطور القانون الروماني؟ وذلك لأن هذه النظرة هي التي تبين قيمته وتبين كذلك قيمة من تفوق عليه.

- كيف تطور القانون الروماني؟ : لقد تطور هذا القانون وبلغ كماله في عهد جوستينيان 533م وهو صفوة القوانين السابقة عليه وعلاج لعيوبها من يوم تأسيس روما عام 744 ق م إلى عام 533م أي أنه ثمرة تجارب قانونية لنحو 13 قرنا ظهرت فيها الفلسفة اليونانية وبلغت أوجها. وقد استعانوا بتلك التجارب القانونية بقوانين سولون لأثينا، وقوانين ليكورغ لاسبارطة والنظم اليونانية عامة، وكذلك المناهج النظامية والفلسفية التي أنتجها فلاسفة اليونان لبيان أفضل النظم التي يقوم عليها المجتمع الفاضل كالذي جاء في كتاب "الجمهورية" لأفلاطون، وكتاب «السياسة» لأرسطو وغيرها من ثمرات عقول الفلاسفة والعلماء في عهدي اليونان والرومان. فهو إذن خلاصة ما وصل إليه العقل البشري في مدى 13 قرنا في تنظيم الحقوق والواجبات. وكل القوانين تأثرت به ماعدا الشريعة الإسلامية.

فإذا قارنا ووازننا بينه وبين ما جاء به محمد ﷺ النبي الأمي وأنتجت الموازنة أن العدل فيما أتى به محمد ﷺ كان ذلك دليلا على أن القرآن الكريم من عند الله⁽²⁾، وأن محمدا نبي رسول لأنه لا يمكن لأمي من بيئة أمية وفي خلال 23 سنة فقط أن يأتي بقانون^{بفوق ما} أنتجه أكبر عباقرة الوجود وفلاسفته خلال 13 قرنا كاملة وهو ينقح ويعدل. إلا إذا كان ذلك القانون من مصدر غير بشري، أي من الله. ولنبدأ المقارنة.

- المقارنة والموازنة بين شريعة القرآن وشريعة الرومان وأحفادهم : في أي جانب اخترنا الموازنة بين شريعة القرآن وما اشتمل عليه القانون الروماني أو ما أتى بعده إلى الآن نجد الفرق بين السما والروحي القرآني والأخلاق الأرضية، ولنشر إلى بعض الجوانب كنماذج على سبيل المثال لا الحصر.

1 - المساواة القانونية : القرآن الكريم وصل إلى أعلى درجاتها { يا أيها الناس إنا خلقناكم من نكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم }⁽³⁾. بينما القوانين التي سبقتها وعاصرتها لم تعترف بأصلها. وكذلك التي أتت بعده إلى الآن لم تعرف تلك المساواة بين الأجناس والألوان. بل لم تعرف المساواة بين آحاد الأمة الواحدة⁽⁴⁾. فنجد الشرائع الوضعية إلى يومنا هذا تقوم على التفرقة العنصرية داخل الدولة الواحدة، ولا أدل على هذا من وضعية السود في الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا فلقد برئ الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية إلى جانب براءته من عصبية النسب والأسرة فبلغ بذلك مستوى لم تصل إليه "الحضارة" الغربية إلى يومنا هذا مما يعني بوضوح أن شريعة القرآن لم تتفوق على شرائع عصرها المتأثرة بالقانون الروماني وغيره فحسب بل على ما تفتق عنه

1 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن من دلائل. اعجازه، ص 10، 11.

2 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 11-12.

3 - الحجرات / 13.

4 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 11-12.

الذهن الإنساني إلى اليوم، وكيف لا، وهذه الحضارة إلى اليوم تبيح للضمير الأمريكي إفناء عنصر الهنود الحمر إفناء منظما تحت سمع الدول وبصرها، كما تبيح له تلك التفرقة النكدة بين البيض والسود. وتبيح لحكومات روسيا والهند ويوغوسلافيا وغيرها إفناء المسلمين وإبادتهم⁽¹⁾ على مرأى ومسمع من الدول المتحضرة أيضا.

ويبقى دائما فوق الكل « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وما يزيد نظرية المساواة أهمية وقيمة، أنها نزلت على الرسول ﷺ وهو يعيش في قوم أساس حياتهم وقوامها التفاضل، بالمال والجاه والشرف واللون، والتفاخر بالآباء والأمهات والقبائل والأجناس⁽²⁾. فنجد عدم المساواة حتى داخل القبيلة العربية ذاتها التي لم تكن تحتكم إلى القانون الروماني بل إلى عرف القبيلة. وما يزيد نظرية المساواة القانونية في الإسلام عظمة، أنها طبقت فعلا، ويمكن القول بأن أحد مظاهرها تمثل جليا في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حيث صار الاعتبار لمكانة الشخص التقوى والعمل الصالح وزال من النفوس الشعور بالفوقية وأصبح الجميع أمام القانون سواء. وبذلك حقق الإسلام المساواة التامة بين الناس إلى حد أن أصبح بلال الحبش الأسود مؤذن النبي ﷺ وهي مكانة ما بعدها مكانة، وهنا نتساءل :

كيف استطاع محمد ﷺ الذي ظهر في القرن 6 م أن يحل مشكلات القرن العشرين التي لم تتمكن الحضارة الغربية رغم ما وصلت إليه من تقدم علمي أن تحلها؟ إنه في الوقت الذي جاء فيه الإسلام ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير والمحيا والممات والحقوق والواجبات أمام القانون وأمام الله في الدنيا والآخرة لا فضل إلا للعمل الصالح، ولا كرامة إلا للأتقى - كما بينت الآية السابقة - كانت كل المجتمعات البشرية تقوم على عكس هذه القاعدة المطلقة. فبعضهم كان يدعي ويصدق أنه من نسل الآلهة، وبعضهم الآخر يدعي ويصدق أن الدماء التي تجري في عروقه ليست كدماء الآخرين مما يجعله فوقهم، وبعض الملل والنحل كانت تفرق الشعوب إلى طبقات تعتقد أن بعضها خلق من رأس الإله مما يجعلها مقدسة. وخلق بعضها من قدميه مما يجعلها منبوذة، وكان يباح فيه للسيد أن يقتل عبده ويعذبهم لأنهم من نوع آخر غير نوع السادة فجاء القرآن الكريم وحطم كل هذه التصورات والزعامات التي كانت تعجج في الكون ويعجج بها، فقرر مبدأ المساواة المطلقة وبين أن جميع الناس عبيد لله { إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا }⁽³⁾. وأنه ليس هناك دم عادي وآخر غير عادي. وما خلق أحد من رأس وآخر من قدم، بل كل الناس خلقوا كما يأتي: { والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا

1 - سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ط5، دار الشروق بيروت، القاهرة، 1978، ص 58.

2 - عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ج1 ص 26.

3 - مريم / 95-98.

وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب
إن ذلك على الله يسير} (1).

وهكذا فجميع الناس من تراب ثم من نطفة، فقرر للإنسان وحدة أصله: الجنس البشري كله
من تراب. والفرد: كل فرد من ماء مهين، والأفضلية للتقوى والعمل الصالح لا غير (2).

2 - الرق : كان الرق حقيقة مقررة ثابتة، أقر فلاسفة اليونان نظامه واعتبروه نظاما
عادلا، ولم تستكره شريعة من الشرائع بما في ذلك النصرانية التي أوردنا بعض نصوصها في ذلك
أثناء ردنا على لا فيجيري، وقد أقر افلاطون نظامه واعتبره هو الطبيعة في المجتمع والأصل، وأنه
ضرورة لا بد منها لاستقرار المجتمع وقرر أرسطو أنه هو نظام الفطرة، لأن بعض الناس لا يمكن أن
يعيشوا إلا أرقاء وآخرين لا يكونون إلا أحرارا، فجاء النبي الأمي وقال: «الناس سواسية كأسنان
المشط» وقال: «كلكم لآدم وآدم من تراب». ولم يسجل القرآن الكريم الرق في محكم آياته بل سجل
العتق، ولم يرد في القرآن نص قط يبيح الرق، بل نصوصه كلها توجب العتق حتى أنه في حرب
الإسلام العادلة (الجهاد)، لم يذكر القرآن رق الأسري، بل قال: «حتى إذا أثنختموهم فشدوا الوثاق
فإما منا بعد، وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها» (3). فلم يذكر في الأسرى إلا المن عليهم بإطلاقهم
أو فدائهم بالمال إن كان في قومهم قدرة على الفداء. بل جعل إطعامهم في حالة الأسر من أفضل
القربات إلى الله عزوجل { ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا
نريد منكم جزاء ولا شكورا } (4). ولقد وسع القرآن الكريم في أسباب العتق وفتح باب الحرية الإنسانية
على مصراعيه واعتبره قرابة عظيمة إلى الله ولو كان الرقيق غير مسلم فقال: { فلا تقحم العقبة وما
أدراك ما العقبة فك رقبة } (5). فجعل من أفضل القربات إلى الله التي تتخذ الإنسان من جهنم يوم القيامة
عتق رقبة. وأوجب على من يفطر في رمضان عامدا من غير غدر عتق رقبة، ومن يحلف ويحلفت ويحلف
عتق رقبة، ومن يظهر زوجته عتق رقبة، ومن يقتل مؤمنا خطأ عتق رقبة، ومن طلب أن يكاتب، كاتبه
سيده وتركه ليكسب ثمنه، ومن ضرب عبده ظلما فكفارته عتقه... وهكذا تعددت أسباب العتق حتى
أنها لو نفذت كلها لا يبقى رقيق في دار الإسلام أكثر من سنة واحدة، كل هذا في زمن لم تكن تعرف
فيه حقوق الإنسان (6)، إلى حد أن بلنتيانس « Plantianus » رئيس الحرس البيزنطي في روما تنصروها أمر
بإخلاء مائة غلام قدمهم هدية إلى البنت^٥ بمناسبة زواجها (7).

1 - فاطر / 11.

2 - سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 56، 57.

3 - محمد / 4.

4 - الإنسان / 8.

5 - البلد / 11-13.

6 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 15، 16.

7 - ول ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح، م 3، ج 3 (11)، ص 406.

وهكذا قضى الإسلام على جميع أسباب الرق باستثناء باب أسرى الحرب لأنه خارج عن نطاقه، ومع ذلك فقد أمر بما ذكرنا من معاملة الأسرى، ومما يزيد الرقيق تكريماً في شريعة القرآن عكس شريعة الإنسان أن :

- شريعة القرآن تخفف عقوبة الأرقاء : فتحصل عقوبتهم نصف عقوبة الحر، بينما القانون الروماني يضاعف عقوبة الضعفاء، فالقرآن يقول في الإماء: { فإذا أحسن فإن آتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب }⁽¹⁾. وكذا العبد إن أتى بفاحشة فعقوبته نصف عقوبة الحر.

أما القانون الروماني فإنه يقول: « ومن يستهوي أرملة مستقيمة - يعني إباحة الزنا - أو عذراء فعقوبته إن كان من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله. وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض »⁽²⁾. النظر العادل يقر بالبداهة نظر شريعة القرآن، لأن العقوبات يجب أن تسير بنسبة تصاعديّة مع الأشخاص لا نسبة عكسية، فتكبر جريمة الكبير وتصغر عقوبة الصغير. لأنه إذا هانت النفس على صاحبها سهل عليه الوقوع في الجرائم فكان التخفيف وإذا كبرت قيمة الرجل في أعين الناس كانت عليه تبعات بمقدار عظيمة. وكانت صغائره كبائر وتضاعفت العقوبة، فالجاه والثروة وغيرهما ليست متعا خالصة، بل عليها تبعات بقدرها. وأن القوانين التي تسير عكسا لا طردا كالقانون الروماني قوانين ظالمة لأنها تستمد منطقتها من القوة، فكلما كان الشخص من ذوي الجاه ضعفت عقوبته. وكلما كان من الضعفاء زادت عقوبته، فهو يحمي الشريف ولا يحمي الضعيف، وقد سمى القرآن الكريم ذلك: حكم الجاهلية ولذلك قال في حق اليهود وعندما طلبوا أن يحكم النبي ﷺ على الشريف الزاني بغير العقوبة المقررة :

{ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون }⁽³⁾. ولقد وصلت شريعة القرآن إلى المساواة المطلقة بجعل جميع الناس أمامها سواء مهما كانت مكانتهم الإجتماعية وهو ما جعلها تبتذ. جميع الشرائع السابقة والمعاصرة والاحقة والحالية لأنه حتى الشرائع الحالية في كل دول العالم تجعل لبعض ذوي المناصب العليا العفو عن المجرمين وإعفاءهم من العقوبة مهما كانت أنواع الجرائم التي اقترفوها كالسرقة والقتل والزنا وغيرها. بينما محمد ﷺ يقرر عندما طلب منه إسقاط حد السرقة عن امرأة بسبب شرفها في قومها. وهي المرأة المخزومية فقال رافضا ذلك رافضا مطلقا: { إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف قطعوه، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها }⁽⁴⁾. وهكذا تبتذ شريعة القرآن جميع شرائع الإنسان.

1 - النساء / 25.

2 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 12-13.

3 - المائدة / 52.

4 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 13-14.

3 - حماية الضعفاء إقتصاديا : كان الضعيف مأكولا ضائعا والفقير بانسا جائعا حتى جاء الإسلام فشرع قانون الزكاة وجعلها حقا معلوقا في مال الغني لا يخلص له إلا بعد إعطائها، ولم يعتبرها الإسلام إحسانا مذلا بل أوجبها على الأغنياء يقبضها ولي الأمر بالنيابة على الفقراء ويوزعها عليهم بمقدار حاجتهم⁽¹⁾.

وهنا نسجل بأن الإسلام أول دين وأن نظامه السياسي أول نظام في الوجود حارب الأغنياء حماية للضعفاء، ويتمثل هذا في محاربة أبي بكر رضي الله عنه لما نعي الزكاة. ونستطيع القول بأن النظام الإقتصادي الذي أنت به شريعة القرآن أفضل نظام إقتصادي عرفه البشر في الوجود أزلا وأبدا جمع خير ما في المذهبين المتنازعين الرأسمالية والشيوعية وتنزه عن مساوئهما⁽²⁾. فإذا كانت الملكية الخاصة هي المبدأ الوحيد للتملك في النظام الرأسمالي والملكية الإشتراكية (العامية) القائمة على التأميم هي المبدأ الوحيد للتملك في النظام الشيوعي أو الإشتراكي فإن النظام الإقتصادي الإسلامي يختلف عن هذين النظامين فيقوم على الملكية ذات الأشكال المتنوعة بدلا من الشكل الواحد، فهو يقوم على الملكية الخاصة والملكية العامة وملكية الدولة. وكل شكل من هذه الأشكال له مجاله الخاص في المجتمع ولا يجوز إلغاؤه⁽³⁾. ودون أن نخوض في التفاصيل التي قد تخرجنا عن إطار البحث نشير. إلى قيام هذا الإقتصاد على مبدأ الحرية على مبدأ الحرية الإقتصادية في نطاق محدود وكذا مبدأ العدالة الإجتماعية الذي يحتوي على مبدئين لكل منهما خطوطه وتفصيلاته، أحدهما مبدأ التكافل الاجتماعي الذي طبقه الرسول ﷺ أثناء المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ويعد من مميزات المجتمع الإسلامي، وثانيهما مبدأ التوازن الإجتماعي وخالصة أركان الإقتصاد الإسلامي الأساسية هي :

1 - ملكية ذات أشكال متنوعة، يتحدد التوزيع في ضوءها.

2 - حرية محدودة بالقيم الإسلامية في مجالات الانتاج والتبادل والاستهلاك.

3 - عدالة اجتماعية تكفل للمجتمع سعادته، قوامها التكافل والتوازن.

ونشير إلى أن هذا الإقتصاد مرتبط بما يبثه الإسلام في البيئة الإسلامية من عواطف وأحاسيس قائمة على أساس مفاهيمه الخاصة، كعاطفة الأخوة التي تفجر في قلب كل مسلم ينبوعا من الحب للآخرين والمشاركة لهم في آلامهم وأفراحهم. هذه العواطف والمشاعر تلعب دورا خطيرا في تكيف الحياة الإقتصادية وتساند المذهب فيما يستهدفه من غايات⁽⁴⁾.

1- المرجع نفسه ، ص ١٤.

1 - يوسف القرضاوي، بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين، ط 2. مكتبة رحاب الجزائر، 1989م، ص 155.

2 - محمد باقر الصدر، اقتصادنا دط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1977، ص 260.

3 - المرجع نفسه ص 260، 264-266.

4 - الحشر 7.

ولكي يحمى الضعيف فإن الإسلام يمنع منعاً مطلقاً أن يصبح المال دولة بين الأغنياء دون سواهم {كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم} (1)، ونشير إلى مثال واحد من مبادئ هذا الإقتصاد في مشكلة تعد مشكلة العصر الكبرى، هي قضية المديونية :

- قضية المديونية : القانون الروماني في بعض أدواره يجعل الدائن يسترق المدين إن عجز عن الوفاء. والحضارة الغربية النصرانية الحالية تكبّد المدين مقابل إعطائه القرض بالربا الفاحش الذي يجعله عاجزاً، ليس عن سداد الدين فحسب، بل حتى عن سداد ^{الفوائد بسبب} تضاعف خدمات الديون فيسدد أصل دينه أضعافاً مضاعفة وبهذا فإن الحضارة رغم تقدمها العلمي إلا أنها تستغل ضعف الضعيف - لأنه هو الذي يحتاج إلى الديون مظطراً - لتشبع نهم الغني في حين يجب مساعدة الضعيف للأسباب الإنسانية. وهو ما أدى إلى كوارث حلت ببلدان كثيرة منها الجزائر مما حول الدول المستدينة إلى عبودية جديدة من شكل آخر.

وإذا كان هذا حال القوانين الوضعية، فإن كتاب -بورغاد المقدس يبيح الربا مع غير اليهودي وها هو النص « لا تقرض أخاك ربياً ربافضة أوربا طعام أوربا شيئاً مما يقرض بالربا. للأجنبي تقرض بالربا ولكن لأخيك لا تقرض ربياً » (2).

وهكذا نجد شريعة القرآن هي الوحيدة التي تقرر أن الدولة تسدد ديون المدين العاجز عن الوفاء إذا لم تكن الإستدانة لإسراف "والغارمين" (3)، كما أنه لا يجوز في أي حال من الأحوال القرض ربياً {وأحل الله البيع وحرم الربا ... وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون} (4). ويعد من حسنات الغني إذا تنازل عن دينه لمدين معسر. هذا لم يصل إليه أي نظام أو دين إلى يومنا هذا، ولم يصل إليه أي قانون من قوانين البشر، فإذا كان الذي جاء بهذا أمياً ومن أمة أمية كان هذا دليلاً على أن ما جاء به إنما هو من عند الله عزوجل (5).

والواقع «أن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام إذا وزن بما كان عليه الناس وقت نزول القرآن كان وحده دليلاً على أن القرآن من عند الله، بل إن أحكامه لا تزال جديدة إذا ووزنت بما عليه الناس اليوم، إذ بالموازنة يتبين أنها سبقت سبقت بعيدا، وأن الناس مهما تتفتق عقولهم عن شرائع قد وصلوا إليها بتجارب قضائية وتجارب عملية، وبالاستعانة بثمرات العقول وما أنتجت الفلسفة والعلم، فلن يصلوا

1- الحشر / 7

2 - تهيئة، ا ص ح 23، فقرات 19، 20.

3 - التوبة / 60.

4 - البقرة / 275-279.

5 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 14، 15، 17.

5 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 14، 15، 17.

إلى ما جاء على لسان النبي الأمي محمد ﷺ... وفي أي جانب اخترت الموازنة تنتهي بالحكم الجازم بسبق النبي ﷺ وعدم بلوغ أحد ما قرره وثبته» (1) (2).

- الشريعة الإسلامية وبناء الإنسان من الداخل : إنه ليجب الإشارة إلى أن شريعة القرآن لا تبذ كل شرائع البشر قبل نزول القرآن وبعد نزوله إلى اليوم في مجال عدالة التقنيين فحسب، بل تزيد على هذا مميزة فريدة تجعل الناس إراديا يلتزمون بتطبيق مبادئ هذه الشريعة ولا يخرجون عنها، وذلك لأنها مرتبطة بالعقيدة وبالقيم التي يبثها الإسلام في أتباعه، ولذلك فإنها مطبوعة بطابع القداسة، وهو ما يجعل أتباعها يلتزمون بتنفيذ مبادئها.

ومن هنا فإنها تأخذ بالإنسان من جانبين، أحدهما داخلي، وهو النفس والضمير، فتكون فيه مراقبة الله وخوفه منه فيرتدع تلقائيا، بل تكون في نفسه ملكة كراهة الجريمة والظلم بأنواعه المختلفة وملكة حب العدل والنظام والانضباط. وعندما يوجد بعض الشواذ الذين لم تربي نفوسهم فإنه يوقع عليهم عقاب خارجي زاجر ليرتدعوا وليكفوا أذاهم عن غيرهم. ويكفي أن نعرف أن وجود العدل في حد ذاته أحد أكبر دواعي ترك الجريمة، ولنأت بمثال يبين لنا أهمية العامل الداخلي في التخلي الإرادي عن الجريمة ويبين لنا في الوقت ذاته كيف تبذ شريعة القرآن شريعة الدولة الأولى في العالم اليوم. هذا المثال هو قضية تحريم الخمر في الدولة الإسلامية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

تعد تجربة الولايات المتحدة الأمريكية في تحريم الخمر أكبر تجربة جر بها الإنسان لإصلاح الأخلاق والسلوك الإجتماعي بقوة القانون، حيث صدر في 1919 م قانون التحريم (Prohibition Law) الذي نص على منع بيع الخمر وشرائها وصنعها وتصديرها واستيرادها وجاء هذا القانون تتويجا لحملة واسعة النطاق ضد الخمر وقامت الرابطة المحاربة لوجود الحانات (Anti-Saloon League) بجهد عظيم في تبين مضار الخمر بإلقاء الخطب وتأليف الرسائل والكتب وعرض المسرحيات والأفلام لعشرات السنين، وأفق في ذلك أموال طائلة بلغت سنة 1925 م تكاليف النشر والإذاعة 65 مليون دولار. وكتب 9 آلاف مليون صفحة في تبين مضار الخمر والتزهيد فيها، ولكن كل هذا وغيره ذهب أدراج الرياح واضطرت الدولة في أوائل ديسمبر 1933م إلى إلغاء قانون التحريم بعد أن ظل ساري المفعول لمدة 14 عاما.

وقد تحملت الدولة خلال هذه الـ 14 عاما نفاقات باهظة لتنفيذ قانون التحريم قدرت بـ 4,5 مليون جنيه. وأداع ديوان القضاء الأمريكي للفترة الواقعة بين جانفي 1920 وأكتوبر 1933 (فترة التحريم) أنه قتل في سبيل تنفيذ القانون 200 نسمة وسجن نصف مليون وغرم المخالفون بأكثر من

2/1 - وقد أشرنا أثناء ردنا على بورغاد في مطاعنه في الشريعة إلى قضايا متنوعة مقارنة بما عند الغرب من تشريعات، منها الميراث الذي لم يوجد نظام في الوجود لا قبل الإسلام ولا بعده في دقته وعدله رغم أنف الطاعنين في الإسلام بسبب ذلك، ومنها النظافة بحيث أن الإنسان الغربي نتيجة لتكبله بقيود النصرانية، تمكن علميا من معرفة القضاء ولكنه لم يتفطن بعد إلى كيفية تنظيف نفسه من الغائط.

مليون ونصف جنيه وصادر من الأملاك ما قيمته 400 مليون جنيه، كل هذا كابدته الولايات المتحدة لهدف واحد، هو «تلقين الأمة الأمريكية المتحضرة» مفاصد الخمر وتبيين مضارها المتنوعة ولكن كل ذلك قبل التحريم وأثناءه ذهب هباء منثورا فاضطرت الدولة إلى الإباحة بعد 14 سنة من التحريم لا بسبب أنها اكتشفت منافع في الخمر ولكن لأنه ما كادت تغلق الحانات العلنية حتى فتحت غيرها من الحانات السرية بالآلاف. وبلغ من طغيان نشوة الخمر على أصحابها أن أصبحت دلالة رجل لآخر على حانة سرية أو على كلمة سرها (Pass-word) يعد من جلائل أصناف البر والإحسان فغشلت الحكومة في الرقابة لكثرة الحانات والتفنن في إخفائها فإزداد الضرر بصحة الإنسان والمجتمع لأن الخمر أصبحت أربأ وروادها أكثر. ومن الأمثلة على صحة هذا فإن المصانع قبل التحريم كان حوالي 400 مصنع وبعد 7 سنوات من التحريم اكتشفوا حوالي 80 ألف مصنع وأكثر من 90 ألف أتون لصنع الخمر فتضاعف عدد المرضى والموتى بسبب رداءة تلك الخمر وكثرة مدمنيها، فقد كان في سنة 1918 (قبل التحريم) 3741 مريضا و250 هالكا وبلغ العدد في سنة 1927م (أثناء التحريم) 11 ألف مريض و7500 هالك كما ازدادت نسبة الجرائم ولا سيما وسط الأحداث والشباب، وزال من النفوس حرمة القانون ونشأت تزعمة التمرد عليه في جميع الأوساط الإجتماعية. وكانت نتيجة التحريم عكسية رغم أن أكثرية هائلة اتفقت على ضرورة التحريم فلم يصدر القانون إلا بعد أن زكته 46 ولاية وصادق عليه كل من مجلس النواب (Congress) ومجلس الأعيان (Senate) ورغم أن دولة جبارة هي أمريكا هي صاحبة ارادة التحريم ولكنها بعد 14 سنة اضطرت أمريكا أن ترضخ للخمارين و تبيح لهم شربها رغم اقتناع حتى شاربها بخطرها وضررها⁽¹⁾.

عندما نقارن هذا بقطر كان يعد قبل 14 قرنا أجهل أقطار الأرض لا علم فيه ولا تمدن، أهله عشاق خمر مقيمون بها، يوجد لها في لغتهم نحو 250 اسما مما لا نظير له في أي لغة أخرى، وأشعارهم خير دليل على شغفهم بها مما يخيل لقارئها أنهم رضعوا من ألبان أمهاتهم. هؤلاء الذين هذه حالتهم نجد أن كلمة "فاجتنبوه"⁽²⁾. وحدها كانت كافية لتركهم لها إلى الأبد. والسر في هذا أن شريعة القرآن تعالج الإنسان من الداخل والخارج كما ذكرنا، فهي قبل أن تنهي الإنسان عن الخمر أو غيرها إنما تدعوه أولا أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر الخ وقبول الإنسان لهذا موقف على رضاه { فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر }⁽³⁾. ولكنه متى آمن انصاع لكتاب الله. وبهذا فإن الشريعة الإسلامية تكون في الإنسان أولا ملكة الإيمان بالله وخوفه ومراقبته، فإذا آمن الإنسان ولكن انحرف تأتي مرحلة أخرى من شريعة القرآن هي تنفيذ الحد و العقوبة المناسبة للجريمة⁽⁴⁾.

1 - أبو الأعلى المورودي، نحن و الحضارة الغربية، دط - دار الفكر، د م ن. و ت . ص 52-60.

2 - المائدة / 92.

3 - الكهف / 29.

4 - أبو الأعلى المورودي، نحن والحضارة الغربية، ص 63-67-68.

وهذا هو السر الذي جعل كلمة "فاجتنبوه"⁽¹⁾، تقلع هذه الجريمة من النفوس وتزيلها من المجتمع، و14 عاما من التحريم في أمريكا بعد ما ذكرنا من تهئية النفوس المقتتعة بضرر الخمر والأموال الباهضة التي أنفقت والأرواح التي أزهقت... لم تفلح إلا في زيادة الإدمان وتكثير المدمنين لأن القوانين الوضعية لا تأخذ الإنسان إلا من الزاوية الخارجية مما يجعل الإنسان لا يحترمها بناء على دوافع ذاتية بل خوفا من المراقبة مما يجعله بدل أن يرتدع يعمل على الإحتيال عليها والإنغماس في المحظور.

وما يزيد شريعة القرآن إعجازا أنها تختلف في نشأتها عن جميع القوانين الوضعية التي نشأت قبلها أو بعدها، ذلك أنها ولدت كاملة مكتملة «شاملة جامعة مانعة لا ترى فيها عوجا ولا تشهد فيها نقصا، أنزلها الله من سمائه على قلب رسوله محمد ﷺ في فترة بدأت ببعثة محمد ﷺ واكتملت يوم نزول قول الله عزوجل {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (2) جاءت للناس كافة، لا لقبيلة أو جماعة، كاملة لا نقص فيها، جامعة تحكم كل عكالة. مانعة لا تخرج عن حكمها حالة، شاملة لأمر الأفراد والجماعات والدول، فهي تنظم الأحوال الشخصية والمعاملات وكل ما يتعلق بالأفراد، وتنظم شؤون الحكم والإدارة والسياسة وغير ذلك مما يتعلق بالجماعة، كما تنظم علاقات الدول بعضها ببعض الآخر في الحرب والسلام، جاءت صالحة لكل زمان ومكان (3). إن ينبوع الإعجاز القرآني في الجانب التشريعي هو: أن علماء الإجتماع متفقون على أن الأمة عندما تستيقظ من سباتها وتندرج في سلم الرقي فتبدأ سلمها الحضاري بما يأتي: التحرر للأمية ازياد الثقافة، التعمق في الإقتصاد والمعيشة ثم شيئا فشيئا يتعقد تركيبها الاجتماعي. فإذا انتهت إلى تعقدها اضطرت إلى قانون ليحكمها، ولذا تلجأ الأمة إلى صياغة لترجمة تاريخها الاجتماعي لقانون، فالقانون يكون في سلم الرقي، ذلك أن من الأمور البديهية عند علماء القانون والإجتماع أن آخر ما يتوج به تقدم أي أمة من الأمم هو تكامل البنية القانونية والتشريعية في حياتها. فظهور قانون متكامل في الأمة يعد الثمرة العليا لتقدمها الحضاري وليس العكس. إذ أن الأمة التي لم تتقدم حضاريا بعد، والتي لا تزال تعيش في عهد البداوة وفي ظل الأعراف القبلية، ليس في حياتها الاجتماعية من التعقيد ما يشعرها بالحاجة إلى سن قانون ووضع تشريع. ولكنها تشعر بذلك كلما تقدمت حضاريا وازداد تركيبها الاجتماعي تعقيدا.

ولنفرض أن القرآن كلام بشر عاش في الجزيرة العربية قبل 14 قرنا، كيف يمكن أن نوفق

بين هذه الفرضية وما يقرره علم الإجتماع والقانون؟

1 - المائدة / 92.

2 - المائدة / 4.

3 - عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ج 1 . ص 15، 16.

أمة كانت تعيش في حياة البداوة لا تشعر بحاجة إلى قانون، إن اختلفوا فشيخ القبيلة ولم يشعروا يوماً ما بمشكلة. وفجأة نجد أن هذه الأمة البدوية المتخلفة فيها قانون تام متكامل في كل شيء، سد الذرائع، الميراث... الخ. فهل يمكن للأمة العربية أن توجد قانوناً متكاملًا عجيباً قبل أن تحتاج إلى هذا القانون؟ وهي أمة بدوية؟ مستحيل، وإذن فإن هذا التشريع ليس تشريع بشر، ولنقرأ مثلاً آية المداينة :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجْلِ مَسْمِي فَاكْتُبُوهُ... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }⁽¹⁾. فنجد أن كلمة الكتابة والكاتب قد تكررت 10 مرات. يخيل إلينا أن الأمة التي قيل فيها هذا الكلام كل أهلها كتبة ومتقفون، لكن الحقيقة ليست كذلك. إن هذا القانون أنزله الله عزوجل، فهو مؤونة الدهر كلها. أنزله الله عزوجل، فقد يكون الوب غير محتاجين إليها آنذاك. ولكن الدهر يحتاج إلى هذا القانون المتكامل⁽²⁾. وهكذا فإن الذي ظهر في الجزيرة العربية قبل 14 قرناً هو عكس القانون البدهي السابق التحرر من الأمية، ازدياد الثقافة... ثم القانون فقد ظهر فجأة بين تلك الجماعات الأمية من رجال الجزيرة العربية قانون متكامل يتناول الحقوق المدنيّة والأحوال الشخصية ويرسم العلاقات الدولية ويضع نظام الحرب والسلام ويضبط آثارهما ولما تتعلم تلك الجماعات بعد شيئاً عن معنى المجتمع الذي يحتاج إلى قانون ولم يأخذ بعد بنصيب من العلم أو الحضارة أو الثقافة مما يعد خطوات أساسية لأبد من اجتيازها في طريق الوصول إلى المستوى الذي يوضع عنده التشريع والقانون، وهنا نتساءل : كيف يمكن حل الأعجوبة التي لا يقبلها عقل أي مفكر، وهي: «أن تولف قبائل تظلمها حياة البداوة البدائية البسيطة قانوناً خالداً تعقد لدراسته بعد 14 قرناً المؤتمرات الفقهية وأسابع الفقه الإسلامي من قبل أساطين الفقه والقانون، ثم تجتمع كلمتهم جميعاً على أخلاقهم ملهم ومذاهبهم على الأهمية البالغة لهذا الفقه، وعلى ضرورة دراسته والإفادة منه في الدراسات القانونية المختلفة»⁽³⁾. إننا لا نجد أي تفسير لهذا اللغز سوى القول: بأنه وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم⁽⁴⁾. وإلا كيف يمكن لشيعة أتى بها فرد واحد وأمى وفي أمة أمية، وفي مدة 23 سنة أن تتفوق على كل شرائع الكون قبل عصرها وفيه وبعده والتي أنتجها عباقرة الوجود خلال الوجود الإنسان كله، ناهيك أن هذه الشريعة وجدت متكاملة قبل احتياج المجتمع إليها وكانت أعدل حل لجميع المشكلات التي ظهرت. لا نستطيع القول إلا أن القرآن كلام الله وأن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين.

1 - البقرة / 281-282.

2 - محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة في إعجاز القرآن الكريم.

3 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن. ص 159، 160.

4 - المرجع نفسه، ص 160.

والنتيجة النهائية من إعجاز القرآن الكريم نلخصها فيما يأتي :

- إثبات نبوة محمد ورسالته صلى الله عليه وسلم.
- إثبات المعجزات لمحمد ﷺ عامة والمعجزة الكبرى خاصة.
- القرآن الكريم هو وحده الذي يحتوي على الحقيقة، وعلى الحقيقة الكاملة، وهو معيار صدق وكذب التوراة والإنجيل، بمعنى هو الحكم عليها وليس العكس.
- كل ما ورد في القرآن الكريم صحيح من :
- عقيدة كالوحدانية والدار الآخرة وما فيها من نعيم في الجنان وتعذيب بالنيران الخ.
- وعبادة كالصلاة والصيام والزكاة والحج الخ. لا يقبل الله أن يعبد إلا بها.
- وشريعة كأحكام الميراث والطلاق والزواج والحدود والقصاص إلخ أي كل الأحكام التي وردت، وهي أفضل ما في الوجود من تشريعات.
- أي : أن الله لا يقبل عمل أي متدين ما لم يكن وفقا للشرعية الإسلامية. ولا يقبل الله عقيدة أي متدين ما لم تكن نابعة من القرآن الكريم كما بلغها خاتم الأنبياء. ولا يقبل الله أن يعبد إلا بما شرع^{في} القرآن الكريم كما بلغ خاتم الأنبياء.